كتاب الشعب

د. على فهمى خشيم

مرُّ السَّحاب

سلسلة تحقق إشتراكيّة الثقافة

82

1984

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

كتاب الشعب

مر السحاب

د. علي فهمي خشيم

عيسى يوسف الباعوني

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

العدد 82 اكتوبر 1984

الطبعة الأولى
1393 و. ر - 1984 م

حقوق الطبع والاقتباس والترجمة محفوظة للناشر

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

ص ب 959

حكاية قديمة جدًا

ماتت «أرسينوى» زوجة «بطليموس الثانى» فى مصر، كانت ملكة رائعة وشخصية فذة. وارتفعت أعمدة الدخان العملاقة من كوم جنازتها نهاراً، وتوهج لهب النار ليلاً. . . حتى بلغ بحر «إيجة». وعلى قمة الجبل المكسو بالجليد رأت أختها أعمدة الدخان وألسنة اللهب. . صاحت برفيقتها فى لهفة وجزع:

«إيه يا خاريس. .
اعتلى قمة الجبل. .
وانظرى من أين تأتى النار. .
أية مدينة اختفت؟
أية مدينة تحترق
وترسل الوهج؟
إنى قلقة. .

فلتطيرى . .
فلتحملك الريح الجنوبية الصافية .
هل يمكن أن يحدث؟
أن تصاب حبيبتى ليبيا بسوء؟» .

وحلَّقت «خاريس» على قمة الجبل الشاهق، وألقت نظرة على جزيرة «فاروس» الشهيرة عند مدخل ميناء مدينة الإسكندرية . ثم صاحت من قلب موجع مكلوم :

«نعم . .
الدخان يأتى من المدينة .
لكن أتوسل إليك أن لا تنتحبى ،
فإن جزيرتك لم تحترق .
نعم . .
إن المدينة يملؤها العويل . .
فالناس يبكون شخصاً من العظماء . .
وأينما جلت ببصرك فى المدن . .
رأيتها مجللة بالسواد» .

هكذا صور «كاليماخوس» شاعر قورينا الأمجد الموقف الحزين . كان يحب وطنه . . كان يعبده . . ورغم أن الزمن

ألقى به فى بلاط ملوك الاسكندرية فهو لم ينسه أبداً. . وكان يذكر مغانيه. ملعب صباه ومرتع شبابه. كان يحن إليه ويمجِّده ولا ينساه حتى فى لحظات وصفه لموت ملكة. كان يخشى عليه من المحن:

«هل يمكن أن يحدث. .
أن تصاب حبيبتى ليبيا بسوء؟».

وقد تتعالى ألسنة اللهب من مدن أخرى، وتعلو منها أعمدة الدخان، ويجللها السواد لموت شخص عظيم، أما ليبيا فلن تصاب بسوء أبداً.

قصة قديمة جداً هذه الحكاية. . مضى عليها أكثر من ألفى عام!

مِنْ افتتاحيّات

"الفصُول الأربعَة"

ينَاير 1978 - أكتوبر 1979

ثورة الفكر... وفكرة الثورة

كثيراً ما يخطر فى البال هذا السؤال:

ما هى «ثورة الفكر»؟

وقد يكون الجواب: رفضه لكل أشكال الجمود، وتحرره من التبعية والتقليد، وانعتاقه من أسار القيود.

هذا يعنى أن الفكر ينبغى أن يكون فى حركة دائمة، يسبر الأعماق ويدخل المجهول، ويطلب الإجابة عن كل سؤال. الفكر الثائر لا يتقوقع ولا ينزوى ولا يهاب. بل يهجم... يقتحم.. يتساءل دائماً، ويحاول الإجابة. لكنه فى ثورته يجب أن لا يمضى بدون سلاح.. إذ ليس ثمة معنى للهجوم بدون هذا السلاح.

وسلاح الفكر يكمن فى شىء واحد: **المعرفة**. هذا هو

ما يعبر عنه قديماً بـ «العلم»، ويسمى (الثقافة) فى تعبيرنا الحديث. لكن المعرفة لا تأتى وحياً. إنها لا تهبط من السماء أو ينزل بها ملاك يودعها دماغ أحد من الناس. لا بد للمعرفة من شيء اسمه: **القراءة**. الاطلاع. النهم فى تتبع المعارف.

لا فكر بدون ثقافة. ولا ثقافة بدون فكر. ولا أحدهما بدون قراءة. ولنحدد المراحل: **القراءة، فالمعرفة، فالفكر... فالثورة**.

هنا يتضح الارتباط الكامل بين مكوِّنات «الثورة الفكرية»، وهنا نجد أن الخبط ذات اليمين وذات الشمال دون وعى بهذا الارتباط يعتبر أمراً بالغ السوء. ولا يمكن تحقق شيء اسمه «ثورة الفكر» بدون مكوناتها الأربعة المذكورة.

بعدها يمكن أن نتحدث عن **الجمود والركود والقيود**..

قبلها.. كلا.

وكثيراً ما يخطر فى البال هذا السؤال:

ما هو «فكر الثورة»؟

وقد يكون الجواب: المنطلقات والمبادىء (الفكرية) التى قامت الثورة من أجلها.

وهذا يعنى أن ثمة أساساً فكرياً للفعل الثورى. إذ لا يمكن القيام بعمل فعلى محسوس دون أن تسبقه فكرته.

لكن الاختلاف بين الاصطلاحين يكمن فى أن الأول عملية ذهنية، **فردية** فى الغالب. والثانى عمليـة تدرك آثارها بآثارها الواقعية المحسوسة، **جماعية** فى الغالب أيضاً.

الفرد والجماعة هنا.

الفرد.. مجموعة أفراد.. يكوِّنون الجماعة.

والجماعة عبارة عن جملة أفراد.

فالفصل بين الفرد والجماعة هنا صعب للغاية، إن لم يكن مستحيلاً، باعتبار الامتزاج العضوى بينهما. ومثلما كانت «ثورة الفـكر» فى حاجة إلى مكوِّنات، فإن (فكر الثورة) فى حاجة إلى مكونات هو الآخر ليتأكد التأصيل ويتوثق الارتباط بين الاثنين.

لا بد لفكر الثورة إذن من: **مبادىء**. ولا بد لهذه المبادىء من وضوح. ولذا لم يكن عبثاً أن توضح كل ثورة فى أى مكان مبادئها.. هى ما يعرف فى تاريخ الثورات باسم «الشعارات». عليها تؤسِّس وجودها، وبها تمضى فى طريق الجماعة التى نادت بها.

امتزاج الفكر بالثورة إذن ضرورى، والتحامهما حتمى، لكينونة الاثنين معاً. فلا يمكن للفكر أن يتحرر بغير الثورة، ولا يمكن للثورة أن تتأصل بغير الفكر. فإذا التقيا معاً تم الانعتاق والرسوخ.. وهذه قمة تحقُّق الوجود.

الانعتاق بالثورة.

والرسوخ بالفكر.

هنا لا بد من عودة إلى أساسى الفكر الأولين: القراءة والمعرفة. وهنا تجدر الإشارة إلى ضرورة مبادىء الثورة... أعنى شعاراتها. وهنا يمتزج الأمران مرة أخرى لنخلص إلى نتيجة حتمية:

إذا فقدت الأسس العلمية المعبِّرة عن الثورة فقدت

مبادىء الثورة وضوحها.

ذلك لأن الفكر «المسطح» يسىء دائماً للقضية التى يدافع عنها. وهو يشوِّه بضحالته كل القيم العظيمة للجماعة. ومن هنا تنشأ مشكلة (التعبير) التى هى أساساً مشكلة «فهم».. أعنى مشكلة (معرفة). فالفكر الغائم لا ينتج إلا أفكاراً غائمة، ويأتى تعبيره غامضاً غير واضح، لعدم وضوحه هو ذاته، بسبب نقص معرفته، لأنه من الأساس لا يقرأ.

الخلاصة: القراءة تؤدى للمعرفة. والمعرفة توضح الفكر. والفكر يعبر عن الثورة. والجميع حلقات فى سلسلة واحدة، تشمل الفرد والمجتمع على حد سواء.

عن "فى" و"عن"

فى عصور ازدهار الحضارة العربية اهتم الكتاب والأدباء والعلماء بالخلق والإبداع. فى الفلسفة والشعر والتاريخ والفلك والطب وكل فرع من فروع العلم والأدب.

عندما بدأت الشمس العربية فى الغروب ملئت ملايين الصفحات شروحاً وهوامش وحواشى وتعليقات ونظماً واختصاراً وتطويلاً.

فى بداية النهضة العربية الحديثة شرعنا نقرأ إبداعاً آخر فى فنون الشعر والرواية والقصة ونحوها.

عندما بدأت الأرض ـ واأسفاه! ـ تزلزل من تحتنا تحولنا إلى نقاد.. نقد.. نقد.. نقد.

ما الفرق؟

حوَّلنا اسم (الشرح) و (التعليق) إلى اسم «النقد». واتكأنا على مقاعدنا الوثيرة مستريحين.

الحضارة والثقافة الحقيقية تعنى «فى».

فى المسرح، فى القصة، فى الشعر، فى الفكر. أى: الخلق ـ الإبداع ـ أعطنى شيئاً فى الاقتصاد، فى الطب، فى الكيمياء، فى الفلسفة، فى أى شىء. هذه ثقافة وحضارة.

«عن» تعنى العيش على نتاج الآخرين. كالعلق يمتص دم غيره ليحيا به. نحن نتحدث كثيراً (عن) كل شىء. نقاد لكل شىء. مجرد شرَّاح ومهمِّشين ومعلِّقين ونظَّامين.. تماماً كيوم غربت الشمس العربية.

ندوة «عن» مشاكل المسرح، عن قضايا الأدب، عن معضلة النص، «عن مفهوم الانزوائية المنخرطة فى طموحات الانغماس التلقائى العالمى»!

ملتقى (عن)...
مؤتمر (عن)...
اجتماع (عن)...

محاضرة (عن)...

أووووف!

لم أخرج من الحلقة.

ألم يكن عنوان هذه الكلمة «عن».. فى.. وعن؟!

الأولة آه !

الشعوب كلها تغنى، والبشر جميعاً يطربون للصوت الشادى الجميل بإيقاعه المنغم وجرسه المرسل الممدود، يريح الروح المتعبة ويمسح عن الفؤاد المعنّى أساه. وقد يكون الغناء مفرداً يطلقه الصادح الواحد فيستولى على الألباب، وقد يكون جماعياً منسقاً يشترك فيه أكثر من فرد بتناغم يبعث فى القلب النشوة، فتنتفض الروح لتحلِّق بجناحى الغبطة فى سماء السعادة والحبور. . كما يقول أفلاطون الفيلسوف.

والغناء عند العرب سليقة. صار طبعاً فيهم بحكم الإنسانية، وبحكم طبيعة الحياة الأولى، يوم كان الجمل والعربى رفيقى حل وترحال، وكان «الحداء» وسيلة العربى القديم لتسلية نفسه ورفاقه فى جوف الصحراء

الموحش، وحث نوقه على مواصلة السفر الطويل. كان الحداء فناً رقيقاً نابعاً من ندى ليل الصحراء، وامتداد المسافات، ورقرقة سراب الظهيرة، وبزوغ القمر الطالع عند الأفق الشرقى اللامتناهى، وسكون الليل الشامل، وحصباء الطريق المنتشرة على طول المدى، وشجيرات الطلح المتناثرة فوق البساط الرملى الأصفر. كان الحداء تعبيراً عن القيم العربية السائدة يومذاك، ونفثاً لما فى صدر الحادى، حنيناً للأهل والدار، وشوقاً للأحباب، وكسراً لحدة الوحشة المحيطة.

آه!!

ولبث العرب يغنون على مدى القرون.

قاعات الخلافة فى دمشق وبغداد. ومجالس الأمراء فى غرناطة وفاس والمهدية وطرابلس. وساعات الطرب فى القاهرة والكوفة والبصرة وحلب. والشعراء يتبعهم الغاوون. صار الغناء طرباً. فى المدينة ظهر «المطربون». عرفت القيان. وأصبح التطريب هو الهدف. يمد السماط، ويدور الساقي، وترص القوارير، ويتكىء الدن إلى جانب

السلطان. وكانت «الأغانى» ـ للأصفهانى ـ تسجيلاً حياً لطبيعة الغناء فى تلك العصور. أعد.. أعيدى. أعد.. أعيدى. ويمضى الليل تلو الليل تلو الليل، ويمزق الأمراء ثيابهم من شدة الجذب والطرب، ويخلعون على المغنين الخلع السنية، ويحشون أفواه الشعراء المداحين تبراً وزبرجداً وياقوتاً. **والشعب فى طرقات المدن المظلمة يقتل بعضه بعضاً ويقتات بفضلات المآدب والولائم.**

. . . آه!!

ولبث العرب يغنون.

ظهرت «الموشحات» تفاعلاً بين العاطفة العربية وأوزان الشعر الأندلسى المحلى. وصار «التوشيح» فناً له محبوه ورواده: **يا زمان الوصل بالأندلس. يا ليل يا عين. يا قمر. يا حلو الشمائل.**

ظهرت «الموالى» ـ عرفناه أخيراً باسم «الموَّال». تعبير من طبقة المسحوقين عن فجائعهم. واختلطت اللغة وفسدت المعانى، وحرِّفت الكلمات. وصار الناس أكثر رغبة فى الغناء والطرب، تنفيساً عن الكظيم المطحون.

. . آه!!

ولبث العرب يغنون.

فى العصر الحديث، عرفنا كبار المطربين بفضل الإذاعات والتسجيلات. انتشرت الأصوات من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر تلعلع بالآهات والزفرات: **أنا زعلان.. زعلان ليه؟ يا سيدى أمرك.. أمرك يا سيدى، أنا حيران.. مسكين وحالى عدم.**

مطرب الملوك والأمراء (تحول أخيراً بالمناسبة إلى: فنان الشعب!). كوكب الشرق. سيدة الغناء العربى. سفيرة النجوم. سلطانة الطرب. رئيس ومدير عام شاويشية الطرب العمومى.

. . آه!!

وانظر إلى ماذا يغنى العرب.

فى مصر عرف «الموال» ـ نسبة إلى الموالى.. طبقة المسحوقين التعساء. فى ليبيا: «يا عينى يا داى». يا دائى.. أيها الداء الذى لا يبرأ. أيها الرمد الأبدى السرمدى.

فى الشام: «أووف» ـ تعبير كامل عن القرف والسخط والتململ. واشترك العرب جميعاً، بدون استثناء، فى نداء الليل والعين: يا ليل... يا عين. يا ليل.. يا عين.

واشترك العرب جميعاً أيضاً فى هذه الزفرة الحرَّى تخرج من الصدر أقوى ما تكون، يمدها أحدهم ويطيلها ويمططها حتى تكاد روحه تخرج فى نهايتها من بين جنبيه.. آه!!

آهٍ على سرك الرهيب.
آهٍ وآهٍ ثم آهٍ وآهةً.

وبهذه «الآه» تميز العرب عن الشعوب كلها فى الغناء.

هم وحدهم ، دون غيرهم فيما أعلم، الذين يطلقون الآه فى موطن الطرب والنشوة. وحدهم يتنهدون فى مجال الفرحة والحبور. وحدهم يتأوهون ساعة الغبطة التى قال أفلاطون الفيلسوف إن الروح تنتفض فيها لتحلِّق بجناحين فى سماء السعادة. و.. الأولة.... آه!!

الكمديا

نترك الغناء وآهاته المتتاليات، ونمضى إلى مجمع الفنون، أستاذ الشعوب كما يقولون، إلى المسرح. هذا الذى عرفناه بعد اتصالنا بالحضارة الغربية فى نهاية القرن الماضى وبداية هذا القرن العشرين. ومن عجب أن العرب لم يأخذوا عن اليونان فن المسرح والرواية والتمثيل، وهم الذين نقلوا واقتبسوا عنهم الفلسفة والمنطق والطب والفلك وغيرها من المعارف، وطوروها وأضافوا إليها وحذفوا منها وعارضوها، ثم نقلوها إلى الغرب الحديث لينهض نهضته الكبرى بعد عصور الظلمة الحالكة. لعل السبب أن فى مسرحيات اليونان الوثنية شخصيات مؤلهة وأساطير ورموزاً وأفكاراً تناقض عقيدة العرب على وجه العموم، أو لعل السبب هو ذاك «الحوار» الذى تزخر به مسرحيات اليونان واللاتين من بعد، وهو العنصر

الأساسى فى تكوين المسرح، و «الحوار» **قضية بعيدة عن الذهنية العربية التى تعودت السماع والتلقى والأمر والنهى**، ولم تعرف الحوار بمعناه المحدد إلا عند الفرق التى كان حوارها جدلاً ونقاشاً ومعارضة للخصم معارضة تذهب إلى تكفيره وتلحيده ونعته بكل صفات الكفر والزندقة والهرطقة والإلحاد والمروق.

عرفنا المسرح حديثاً، ونقلناه عن الغرب، وقسمناه ـ كما فعل أهله ـ إلى قسمين: «تراجيديا» و «كوميديا». ثم احترنا فى التعريب، فقلنا عن الأولى: **مأساة، وفاجعة**، وقلنا: **كارثة، مصيبة، داهية، طامة، نكبة**، إلى آخر القاموس.. ولم نتفق. وقلنا عن الثانية: **مسلاة، وملهاة، ومسخرة، ومهزلة**.. ولم نتفق.

برعنا كل البراعة في الأولى. بدءاً من مقتل الحسين فى كربلاء ومن قبله: عمر، وعثمان، وعلى (رضي الله عنهم أجمعين) وانتهاء باغتيال إنسان خلقه الله على هذه الأرض ليعمِّرها.. اسمه «**الإنسان العربى**».

يوم عاشوراء نبكى الحسين، على مدى أربعة عشر قرناً

نبكيه، ويوم عيد الأضحى نذبح الخراف ونسيل الدم ونذهب إلى المقابر ضحى لنبكى موتانا بالجملة. وعلى المسرح نجسِّد مآسينا، وتظل أشهر مسرحية لأشهر كاتب مسرحى متخصص (اسمه على أحمد باكثير رحمه الله) اسمها «الحاكم بأمر الله» أروع مشهد فيها (من الروع وليس من الروعة) منظر الخليفة المتأله وهو يذبح طفلاً فى العاشرة ليستل قلبه الطرى ويعرضه على جمهـور النظارة ليبعث فى أفئدتهم رعباً فوق رعبهم الأزلى!

فى الثانية أخفقنا كل الإخفاق.

عنـدما حـاول كتاب المسـرحية العـرب أن يكتبوا (الكوميديا) لم يجدوا سوى الاقتباس. كل المسرحيات الضاحكة مقتبسة. بدءاً من «الشيخ متلوف» التى نقلت «طرطوف موليير» حتى آخر عرض تشهده العواصم العربية اليوم. **عندما حاولـوا «الخلق» فى هذا البـاب كانت ضحكاتهم نواحاً وفكاهاتهم صراخاً، ودعاباتهم مخنوقة الصوت مكتومة الأنفاس.**

«الكـوميديـا» أمر، فيـما يبدو، بعيـد عنا. ونحن

معذورون كل العذر. هل يمكن لعشرات القرون من القهر والكبت والإذلال والاستهانة بهذا الكائن التعس المسمى «**الإنسان العربى**» أن تنتج إلا بكاء وعويلاً وهمًّا تنوء به الجبا ل؟ فإن كان ضحك فى يوم من الأيام.. جاء ضحكاً كالبكاء.. كما يقول أبو الطيب رحمه الله.

من هذا الواقع، وحلاً لإشكال اللغة والتعريب، وتعبيراً عن حقيقة أمر المسرح العربى، أقترح ألا نتبع تقسيم أهل الغرب لفن المسرح إلى قسمين كما قالوا. لنكتف بتسمية واحدة تجمع الاثنين وتعبر عن روح «**الكمد**» الضاحك من شدة الكرب. فلنسمه: «فن الكمديا».

هل توافقنى؟!.

ألف. لام. ميم

يقولون فى الأمثال: «هذا الأمر، أو فلان، أشهر من (قفا نبك)».

لم يكتف ذلك الضليل بأن يجتر أحزانه وحده، وينتحب بمفرده، وينعى ذكرى الحبيب والمنزل وحيداً كما ينبغى أن يفعل، بل يصر على أن «يشاركه» الغير آلامه ويوزع الأسى والشجن على الناس ويدعوهم للبكاء معه، لم يكتف بالمشاركة الوجدانية من صاحب واحد فجعلهما اثنين ليكون هو الثالث كى تجتمع الرؤوس فى ثلاثية جنائزية تبكى وتبكى حتى تنفطر القلوب حزناً. ويبلغ البيت الحد الأعلى من الشهرة فيضرب به المثل.

منذ أيام الجاهلية القديمة حتى عصر الجاهلية الحديثة وشعراء العرب يبكون. على الأطلال يبكون، وعلى فقد

الأحبة والأهل والأولاد وصرعى الحروب وقتلى المؤامرات والدسائس يبكون. بمناسبة وبدون مناسبة يبكون. تضيع الأندلس ـ ذلك الفردوس المفقود ـ فيبكى شاعرهم: «من سره زمن ساءته أزمان». وتضيع فلسطين فتجرى أنهار الدموع على الأوراق المسودة ثلاثين عاماً أو تزيد. وتأتى النكسة بعد النكسة ولا نقرأ فى شعرنا سوى الجراح والألم، والدمع، والنجيع، والحزن، والفجيعة، والندب، والعويل.

أ ل م. ألف. لام. ميم.

ألم. كلمة واحدة تلخص الشعر العربى كله، قديمه وحديثه.

أل.. أداة التعريف فى لغتنا.

م.. زم الشفاه عند البكاء والنحيب، وهى علامة الصمت القهرى المطبق.

لا أريد أن أطلع ولدى على دواوين الشعر هذه الأيام. أود أن أبعده عن هذا الألم الممض. يكفى ما قاسى أبوه على أيدى شعراء العرب ومن كلماتهم المغموسة فى الدمع والدم.

هل يمكن أن نجد شاعراً جريئاً يقلب حروف الكلمة، يقدِّم الميم ويؤخِّر اللام، فيجعل الألم أملاً؟

هل من شاعر يفتح فرجة الرجاء فى هذا الستار الأسود لينبثق ضياء الفجر ويطل نور الحياة الدافق؟

هل من شاعر يمجد تاريخ هذه الأمة، ينادى أبناءها فى صوت ممتلىء ثقة وعزماً وإصراراً وعناداً وكبرياء، بدلاً من هذه الأصوات المبحوحة الممزقة الذليلة المخنوقة بالبكاء والحزن؟.

آمل هذا.. إن شاء الله!

القتل بالكلام الفارغ !

فى قاموس فكر الغرب وسياسته قاعدة مشهورة تتبع إذا أرادوا تجاهل أمر ما يرونه خطراً عليهم فلا يشعر به أحد ولا يحس به إنسان فيوأد فى مهده ويقضى عليه قبل أن يعرف: (اقتله بالصمت)! هكذا قتلاً هادئاً ليناً دون ضجة ولا صخب يلفت الأنظار، فتطوى جريمة القتل المتعمد دون أن يدرك أحد ما حدث.

ولقد طبقت هذه القاعدة الرهيبة بدقة كاملة بالنسبة للفكر العربى وتراثه وحاضره حيناً من الدهر. قتلت كل فكرة عربية بالصمت ووئدت كل حركة ثقافية بالأسلوب ذاته، وأطفئت كل ومضة فى وطننا الكبير بالتجاهل التام. وكان الإنسان العربى نفسه نسياً منسياً فى أركان الأرض الأربعة. كان العالم مشغولاً على مدى السنين الطوال بكل ما يجرى فى المنطقة القطبية الشمالية والجنوبية، ويقرأ عن

مجاهل افريقيا ويتحدث عن حضارات (الانكا) و (المايا) و (الأزتك) ويعرف كل شيء عن أساطير التوراة وحضارة (كريت) ومدنية جبال (الهملايا). . إلا العرب والإسلام. بضعة مستشرقين يظهرون بين الفينة والفينة ليكتبوا عن خلافات الفرق الإسلامية، ويتحدثوا عن مظاهر التخلف فى عصور الانحطاط ويشيروا إلى مواطن الضعف، ويحرفوا التاريخ عن مواضعه، ويشوشوا الأفكار ويطعنوا كل ما هو خير وحق وجميل فى تراثنا.

ثم ماذا؟

استمر الأمر طويلاً. القاعدة مطبقة وكل شيء على ما يرام.

فجأة تغير الموقف. تفجرت الأرض العربية بالثورة والثروة معاً. براكين الثورة تقذف لهبها فى كل مكان، والإنسان العربى يبحث عن ذاته ويجدها ممثلة فى تراثه يستلهمه لتحرير حاضره وتحقيق مستقبله. وهو يملك كل ما ييسِّر له الانتفاضة من تحت ركام القرون، ويعرف أنه قادر على نيل ما يريد. انقلبت الموازين، واختلت

المقاييس، وشعر الغرب بالخطر.

القتل بالصمت لم يعد مجدياً.

السلاح الفتاك صار مثلوماً.

والعرب قادمون والإسلام يستعيد نضارته وحيويته، وهو يتحدى بكل القوة التى أودعها الله فيه. الدنيا كلها تلتفت إلى هذا الوطن الكبير وترى فيه المستقبل.

ما العمل؟

فلتتبدل القاعدة. فليستعمل حد سلاح آخر. فليصبح الصمت كلاماً.. وهكذا كان! كلام.. كلام.. كلام..

عشرات المحطات الإذاعية ومئات من الصحف ومئات الكتب، والندوات، والمحاضرات، والمؤتمرات واللقاءات، والاجتماعات. وآلاف البحوث والدراسات.. كلها تتحدث عن العرب والإسلام. الضجيج يملأ الأسماع، والصخب يحيط بنا من كل جانب، والأصوات تعلو هنا وهناك. والغرب كله معنىّ هذه الأيام بأمر العرب، وحياة العرب وماضى العرب.. ومستقبل العرب. وقد يبدو هذا جميلاً لكنه ـ للأسف ـ

ليس جميلاً كله بإطلاق. نظرة واحدة إلى ما ينشر عنا وسماع القليل مما يذاع يبين عن السياسة الجديدة: **القتل بالكلام**.. **الفارغ**! الروايات الخيالية تصدر بالعشرات كل عام تشوِّه صورة الإنسان العربى وتجعله مجرد بدوى لئيم يمتطى جملاً ويشد إلى وسطه خنجراً يقف إلى جانب بئر للنفط. الدراسات تنتشر للتشكيك فى قدراتنا. والمؤتمرات تعقد لإغراقنا فى دوامة أثر دوامة، والإذاعات تأتي من كل مكان لتسلخ بأساليبها الجهنمية عن المواطن العربى ثقته بنفسه ووطنه وشعبه.

الكلام الفارغ هو السلاح الجديد ضدنا، كلام غير مفيد، كلام يشغلنا عن مسيرتنا، ويفرِّق بيننا ويبعث الريبة فى صفوفنا ويعمِّق خلافاتنا ويصنفنا عرباً وأعراباً ومستعربين.

كلام فارغ كثير جداً يأتينا يحتاج إلى النظر. كلام فارغ قاتل.

هذه الأمة لا بد لها من اليقظة الكاملة.. لكى تنتصر.

التكنوترانسندانتاليزم

هل تمكنت من قراءة هذا العنوان أيها القارىء العزيز؟!

هذا حسن ويمكنك، إذا رغبت، أن تحشر نفسك فى زمرة المثقفين العلميين المحدثين على هذا الأساس!

مصطلح يبدو غريباً طويلاً ممدوداً يجر آخره أوله فى عناء. لكنه يرن فى الأذن ـ أنت لاحظت هذا بالطبع ـ رنيناً خاصاً له مدلوله وفحواه. هل ترغب فى معرفة معنى هذا التعبير، إن لم تكن تعلم؟

جيد. فلنعربه بأنه «**المفارقة التقنية**». ليس واضحاً؟ فلنقل إنه «**التعالى التكنولوجى**». ولا هذه أيضاً؟ فلنقل إذن إنه «**التفرد بمعرفة والاختصاص بالأسرار التقنية دون الغير**».

الغرب، مرة أخرى، يملك أسرار (التكنولوجيا).

ونحن العرب، مرة ثانية، نلهث للحصول على هذه الأسرار. هم فى حاجة إلى نفطنا ومواردنا الغزيرة الأخرى. ولذا نراهم يداهنوننا ويعدوننا بهذه الأسرار.

- **التكنولوجيا فى خدمة التنمية.**
- **حوار الشمال والجنوب.**
- **استخدام التقنية فى تنمية الموارد البشرية.**

مؤتمرات، ومفاوضات، ووعود، ووفود ثم: لا شىء!

ألم يسأل أحد نفسه سؤالاً بسيطاً: هل نتوقع أن يتنازل الغرب عن تفرده بمعرفة هذه الأسرار؟ هل يسمح بفقدانه ميزةمعرفتها والإحاطة بها؟ هل يمكن أن يعطى سلاحه لمن يحسبهم أعداء له فى الماضى والحاضر والمستقبل؟! الطريق إلى التطور التقنى لا يكون (بشراء) أسراره، لأنها ببساطة لا يمكن أن تباع بأى ثمن.

الطريق الوحيد غرسها فى المناهج الدراسية منذ السنة الابتدائية الأولى حتى نهاية المرحلة الجامعية، وتغيير نمط التفكير بتغيير أسلوب الحياة، وتشجيع البحوث العلمية والإغداق عليها ومساندة كل مشروع علمى تقنى على هذه

الأرض. الأسرار التقنية تشبه فى هذا العصر أسرار الكهنوت فى العصور القديمة لا يمكن الوصول إليها إلا بمعرفة لغتها ومصادرها، وإلا بالتعامل اليومى معها. وإذا كان العرب جادين حقاً فى هذا السبيل فليكفوا عن عملية الشراء هذه التى لا تنيلهم إلا النماذج السيئة وليفكروا بأسلوب أكثر جدوى من هذا الأسلوب.

متى غده ؟

مئات السنين مرت، وعشرات عقود الأعوام كرَّت، مذ أطلق الحصرى الشاعر سؤاله السرمدى فى زفرة حرَّى: «متى غده».. يا ليل الصب؟!

استحفلك بالله، أنبئنى، أخبرنى، قل لى، أعلمنى.. متى.. **متى غده؟** أنا الحيران الولهان، التعس النكيس، الممزق الدائخ، المرتبك المضطرب، أريد أن أعرف.. **متى غده؟** مد لى خيط الأمل، بيِّن لى الموعد، أرجوك وأتوسل إليك وأتضرع إلى جنابك. أطمعنى ببصيص من نور فجر الغد. لا تقطع خيط الرجاء ولا تصفق فى وجهى الباب. قل لى: **متى غده؟!**

لكن مئات السنين مرت، والسؤال الحائر معلق مصلت، ومعه حيّر شعراء الأمة ونقادها. وجد الشعراء فى

السؤال فرصة لإظهار براعتهم اللفظية المدهشة، فجاءت تترى، من بعد، قصائدهم المعارضة تضيف أكداساً إلى أكداس من نظم إثر نظم وتزيد فى عدد قصائد الشعر العربى وكمها. ووجد النقاد مناسبة عظيمة لإبراز إحاطتهم الشاملة بعلوم النحو واللغة وتبحرهم المغرب فى القواعد والأصول الصرفية والعروضية وأشعار الأولين. ومنذ البداية الأولى.. اختلفوا!

قال بعضهم: «**يا ليلَ الصبِّ**»... مضاف ومضاف إليه. و «**غده**» مضاف ومضاف إليه كذلك، والهاء ضمير الغائب تقديره: هو.. ذلك الحائر الذى يأتى ولا يأتى أبداً! وقال آخرون: «**يا ليلُ.. الصبُّ متى غده**». الهاء عائدة إلى الصب، والليل هو المنادى.

وقال غيرهم: «**يا**» ـ والمنادى مجهول مكانه ثلاث فقط هكذا: (...) وتقديره: يا ناس، يا هوه، يا عالم، يا خلق الله، يا عرب! أسألكم للمرة الألف: «**ليل الصب متى غده؟**».

وقال مؤيدون: هذا هو الصواب والقول الذى لا

يعاب. فالغد يعود إلى الليل.. ليل الصب الحيران التعيس النكيس المقهور. فالغد يلى الليل، والصبح بعد الديجور.

قال فريق: الغد للصب.

قال آخر: الغد بعد اليوم.

قال ثالث: السؤال فى أساسه غلط. فكيف يسأل عن موعد الغد، وقد قيل: الغد لا يأتى أبداً؟!.

قال رابع: الزمان شىء نسبى. فالأمس واليوم والغد آن واحد. ما نسميه «الأمس» كان «اليوم» ذات يوم.. و «اليوم» سيصبح «أمساً»، و «غداً» سيصير «اليوم» ثم نسميه «الأمس».. وهكذا دواليك!

انبرى فريق غيره قائلاً: الزمان ليس نسبياً. الزمان مطلق. الزمان هو البعد الرابع. ألم يقرأ الحصرى نظرية النسبية عند آينشتاين؟! لو فعل لما سأل هذا السؤال السخيف!

رد عليه سواه: الحصرى سبق آينشتاين وكان أعلم منه وأفضل. لكنه بدلاً من أن يضع نظريته فى قالب علمى جامد آثر أن يطلقها شعراً فيه الليل والصبابة والغرام والهيام.. ليسهر القوم جرَّاها ويختصموا!

قال نحوى متحذلق: لو أنه لم ينصب «الليل» ويجر «الصب» لما كان ثم إشكال.

عارضه نحوى زميل: بل هو رفع «الليل» ورفع «الصب». الليل منادى، والصب مبتدأ.

رد الأول: «الصب» مجرور رغم أنفك. مجرور بالكسر. فهو مجرور ومكسور. ومقهور!

واشتبك الجميع ولا تزال المعركة «حامية الوطيس» حتى الآن!

مئات السنين مرت، والسؤال عن الغد يبدو كعلامة استفهام ضخمة معلقة على حافة الأفق ونحن ننظر إليها بشوق المتلهِّف، كأنها سراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً. يشغلنا هذا الغد ونحن نعلِّم أطفالنا: «إن غداً لناظره قريب». وننظر إلى المجهول وفى المجهول وقلوبنا تخفق، خوفاً وطمعاً فى هذا الذى لا نعرف كيف يأتى وكيف يكون. نسفح أحلامنا وتهرب عيوننا من الواقع تحت أقدامنا إلى الأفق البعيد تترقب ظهور المنقذ.. الغد.

نسينا اليوم، الآن، اللحظة. خدِّرت هذه الأمة بالرؤى

والأحلام، وصرفت أنظارها عن الواقع المرير المريض. جعلوا شعوبها تنظر إلى الماضى بعين وإلى المستقبل بأخرى، ومنعوها من أن تنظر إلى الحاضر حتى لا تثور وتنقض وتهز الأرض هزاً تتهاوى معه الأصنام والأوثان وتنطلق من ربقة عبوديتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتحرر ذاتها بيدها، وتبنى «غدها» هى كما تريد له أن يكون.

الحاضر. اليوم. الآن.. الآن وليس غداً. هذا ما يهم.

الحاضر بكل صراعاته التى يجب أن تفجر لتكشف الزيف والوهم والخداع ـ على امتداد الوطن العربى كله. واليوم بكل تفاعله الخلاق لتعرف جماهير هذه الأمة الحقيقة كل الحقيقة. والآن هو وقت الارتباط بالواقع بكل حنظله المر وفجائعه وانتكاساته وخياناته، لنغيره بأيدينا ـ نحن أبناء الأمة العربية ـ تغييراً به يكون غدنا الحقيقى الذى نريد.

لن نسأل بعدها: متى الغد؟
فالغد لدينا سيكون.. اليوم!

مأساة التاريخ

● «. . . ودامت حرب البسوس بين العرب أربعين عاماً.

● ووثب الخليفة على بنى عمومته فقتلهم جميعاً.

● ووثب خدم القصر على الخليفة فذبحوه.

● ووضعهم جميعاً فى الداموس حتى ماتوا اختناقاً.

● ولم يعرف مصير طارق وقيل إن سليمان بن عبد الملك قتله غيلة.

● وقال الحجاج: إنى لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها.

● واستخرجت هند بنت عتبة كبد حمزة بن عبد المطلب وطفقت تمضغها.

● وطعن ابن ملجم علياً بالخنجر وهو يصلى فى المحراب.

● وتناثر دم عثمان على المصحف بعد أن ضرب بالسيف.

● ووضع محمد بن أبى بكر فى جوف حمار وخيط عليه.

● فرفع زياد ابن أبيه سيفه وهوى به على عنق أقرب المصلِّين إليه.

● ومرت ذات النطاقين فرأت ابنها عبدالله معلقاً لا يزال فقالت: أما آن لهذا الفارس أن يترجل؟

● وضرب الخليفة بالقباقيب حتى مات.

● فخرج ابن... وشق عصا الطاعة فقبض عليه وخوزق!».

هل تبغى أمثلة أخرى؟

ارجع إلى كتب التواريخ القديمة، واقرأ نصوص التاريخ المدرسية الحديثة، تر كيف شوِّه تاريخنا ومزِّق شر تمزيق، تعرف كيف حول تاريخ هذه الأمة العظيمة إلى مجموعات

متناحرة وقبائل متقاتلة ورجال همهم الذبح والقتل وشغلهم الشاغل أن يفتكوا أو يفتك بهم.

ونحن نتحدث عن الغد يجب أن ننظر إلى الماضى بعين الاعتبار. والماضى هو التاريخ كله. وحين نتناقش فى «إعادة كتابة التاريخ العربى» ينبغى إدراك أن التاريخ لا يقرأ للمتعة والتسلية بل يقرأ للاستفادة منه وبث روح العزة، والوحدة، والتلاحم، ومعانى النخوة والكرامة والشهامة فى هذه الأمة. وإذا كان مؤرخونا القدامى أفرطوا فى التركيز على الفواجع والنكبات، بسبب تركيزهم على الأفراد ـ خلفاء وأمراء وسلاطين وولاة وحجاباً، مما هو مبعث الاهتمام بالخصومات الشخصية والتناحر الأنانى البشع، فإن إعادة كتابة التاريخ تعنى التركيز على الجماعة، على الشعب فى مجموعه، وعلى مواقع النصر والفخر... لا سيما فى ما يقدم لتلاميذنا وطلابنا.

أو ليس الاهتمام بموقعة «ذى قار» مثلاً وإبراز معانيها الكبرى وترسيخها فى الأذهان أولى من رواية «حرب البسوس» ألف مرة؟

أوليس ذكر عمر بن عبد العزيز، وابن القاسم، أفضل من إيراد خطبة الحجاج وأضرابه؟

ألا نجد فى انتصارات العرب وأمجادهم ما يملأ مئات المجلدات، وفى حضارتهم ومدنيتهم السامقة ما يشحن ذهن الطالب وفكره اعتزازاً بأمته وتقديراً لعروبته وفخراً بمآثرها الخالدات؟ مأساة تاريخنا أننا جعلناه تاريخاً للمآسي!!

ونحن نصوغ اليوم، لكي نصنع الغد، لا بد أن نعيد صياغة الماضى. على أسس جديدة من الوعى بأهمية التاريخ وإدراك لأبعاده.. لا بد أن نعيد الصياغة، وإلا فلا كان أمس لنا، ولا يوم، ولا غد!!

احلموا جيدًا أيها الأطفال

هذا عامكم . . .

إذ قالت «الأمم المتحدة»: ليكن عام للطفل، فكان عام للطفل. ورأت هذا حسناً فقالت: ولتكن احتفالات الأمم بعام الطفل، فكانت الاحتفالات، ورأت هذا حسناً فقالت: فلتكن أنوار وألعاب نارية ومهرجانات وملصقات وإعلانات وبهجة، فكان ما أرادت. ورأت هذا حسناً فقالت: الآن أديت مهمتى وآن لى أن أستريح . . . واستراحت! . . .

هاص أطفال العالمين الأول والثانى وزاطوا. ملأوا الملاعب والمسارح وأطلقوا ملايين «البالونات» وشاركوا بعضهم بعضاً فى المهرجانات وتنقلوا بالطائرات النفاثة ليحضروا الملتقيات، وتبادلوا الزيارات الودية والبطاقات

البريدية المزخرفة والهدايا والدمى والألعاب. وضحكوا... ضحكوا كثيراً جداً. وكانوا سعداء للغاية بإرادة «الأمم المتحدة». تواثب أطفال بوسطن ومانشستر وميلانو واستوكهولم وموسكو وبرلين ومارسيليا وفيينا، وطوكيو، وحتى أطفال هاواى وسدنى ومدريد، عمَّتهم الفرحة بعامهم الذى أرادته «الأمم المتحدة»... سواكم يا أطفال العالم الثالث، إلا أنتم يا أطفال «العالم» العربى.

وأسفاه! أوشك عام الطفل العالمى على الانتهاء ولم تعلموا به. لم تعرفوا أن لكم عاماً خصص من أجلكم. لم تجتمعوا، ولم تبتهجوا بلقاء، ولم تضحكوا. ظل طفل بيروت مختبئاً خلف الجدار المهدم يتفادى طلقات المدافع الرشاشة ويبحث عن أشلاء أبيه تحت الركام، ولبث طفل القاهرة يجرى فى الشوارع الحزينة يلتقط قرشاً يتعشى به، ولا يزال طفل المدن الفلسطينية كلها يبحث عن أية مدينة ينتسب إليها.

أواه! كيف يعرف طفل الصحراء الغربية أن له عاماً وهو المحروم من مبادىء القراءة والكتابة؟ أنّى لطفل الصحارى المتدفقة بالنفط أن يجد الاهتمام به فى زحام

الكروش المنبعجة أمام المصارف والشركات وصفقات البيع والشراء؟ من أين للطفل العربي أن ينعم بعامه ـ بل بطفولته كلها ـ في هذا الضجيج الهائل المهول من زعيق الإذاعات وصلصلة الجرائد وجلجلة المجلات؟ من أين له بلحظات يتمتع فيها ببراءة الطفولة، وهو لا يسمع إلا كذباً ولا يتنفس إلا نفاقاً وختلاً وغدراً، وهو يرى معالم الخيانة في وطنه والاستبداد بمصائر أهله، يتغذى هراء ويتعشى سخفاً وتقدَّم له أسوأ الأمثلة على مائدة الإفطار؟

واحسرتاه! عندما تكبرون، يا أطفال العرب، وتقرأون هذه الكلمات... أعرف أنكم ستلومونا وتصبون اللعنات على رؤوسنا. فقد أسأنا إليكم كثيراً. أرجوكم ألا تفعلوا. تمهلوا قليلاً ولا تقسوا على آبائكم أيها الأطفال.

ستقولون: أضعتم فلسطين، وسمحتم للخيانة بأن تبقى وأنتم تنظرون، وصرفتم النظر عن النظم الاستبدادية، وفشلتم في توحيد الأمة، وأطلقتم شعارات جوفاء ومسختم شخصيتنا، وكنتم شيعاً وأحزاباً، وقاتل بعضكم بعضاً في السر والعلن.

نقول لكم: نحن جيل العذاب. استشهد منا مئات الألوف فى سبيل تحرير الأرض العربية من الاحتلال والاستعمار، وحاولنا بناء دولة الوحدة بين أقطارنا مرات ومرات، وصارعنا قوى التخلف والعسف، وقاومنا الاستعمار القديم والجديد، وأعدنا لأمتنا لسانها، وناضلنا ضد عوامل القهر وقوى الطبيعة، وبذلنا الدم والعرق والدموع لنحقق لكم غدكم.

جيلنا لم يعرف للطفولة معنى. ولدنا شيوخاً قبلكم تنوء كواهلنا بالأعباء وتثقل ظهورنا الأحمال، بكينا كثيراً من أجلنا ومن أجلكم يا أطفال العرب... وكنا نحلم.

حلمنا كثيراً بزغاريد الوحدة والانطلاق، وبأسباب المنعة والعزة، وبراية عربية خفاقة، حلمنا بالمجد يعود ويسمق. حلمنا بالحرية السياسية والاقتصادية والاجتماعية. كانت أحلامنا للأسف أضغاثاً... لم يتحقق منها الكثير.

ماذا نملك لكم؟

لقد تعبنا... أنهكنا... انهارت أحلامنا واحداً بعد الآخر.

تكالبت القوى ضدنا، وتألبت علينا من كل جانب، من الخارج والداخل على حد سواء. الأنياب والمخالب تتناهشنا. تسيل دماؤنا وتجرى على رقعة الوطن كله، وينزف النجيع مكوِّناً مجرى أحمر من المحيط إلى الخليج. يتساقط الشهداء منا كل يوم. نذبح كل يوم بخنجر مسنون. ماذا نملك لكم؟

لم يبق شيء لا تعرفونه. صخب إذاعاتنا وحناجر خطبائنا وصراخ مقالاتنا أعلمتكم بكل شيء. أنتم أدرى منا بالحال!

لم يبق لكم فى بقية عامكم إلا أن تحلموا مثلما حلمنا من قبل - احلموا هذا العام ولعشرات الأعوام القادمة. احلموا بالوحدة والحرية للوطن الأكبر، واحلموا باسترجاع الأرض السليبة، احلموا بالتقدم العلمى وبالثقافة والحضارة. احلموا بالمدن العربية الزاهرة. احلموا بالخلاص من الفساد والعفن وتحطيم رؤوس الخيانة والعار، وبعزة الوطن وكرامة المواطن.

واحلموا جيداً أيها الأطفال. لتكن أحلامكم بالغة

الروعة، فى منتهى الكمال والجمال والجلال، لتكن أحلاماً جيدة عظيمة للغاية.

فمن يدرى؟

قد تتحقق أحلامكم أنتم يوماً، فلا تندموا، إن كانت أحلاماً صغيرة!!

تأملوا خارطة الوطن

افتحوا كتاب الجغرافية وانظروا فى خارطة الوطن الأكبر. ماذا ترون؟ تفحصوا نظم الحكم فى الأقطار العربية الاثنين والعشرين قطراً. ماذا ترون؟ جميع نظم الحكم المعروفة فى التاريخ وغير المعروفة:

(مملكة ـ سلطنة ـ إمارة ـ دولة ـ جمهورية.

مملكة دستورية ـ مملكة غير دستورية.

جمهورية انتخابية ـ جمهورية رئاسية ـ جمهورية مدى الحياة.

إمارة رئاسية ـ إمارة وراثية.

رئاسة حزبية ـ رئاسة قبلية ـ زعامة طائفية ـ زعامة عائلية.

أقلية ـ أغلبية ـ نيابية ـ تناوبية ـ

يمينية - يسارية - غربية - شرقية - شمالية - جنوبية).

لا تفغروا أفواهكم الصغيرة دهشة أيها الأطفال، فقد دهشنا من قبلكم آلاف المرات. هكذا رسم أعداؤنا خارطة الوطن حين أيقنوا بخروجهم منه، لتظل أمتنا ممزقة الأطراف، ويمنعوا قيام وحدتها الكبرى، أكبر قدر ممكن من الزمان. هكذا حوَّلوا صراعنا ضدهم وضد عوامل التخلف إلى صراع بين الرئاسات والزعامات ونظم الحكم المختلفة. هكذا افتعلوا الخلافات وعمَّقوها وأرَّثوا نار الفتن وزادوها لهباً. هكذا نحن الآن فى واقعنا... فكيف لنا بتحقيق حلم الوحدة الكبير؟

واقرأوا شيئاً من التاريخ

وافتحوا كتاب التاريخ واقرأوا شيئاً منه. أعرف أنه كتاب مشوش، غير أنه لا يستطيع أن يجحد حقائق التاريخ كلها. سوف يخبركم ـ على استحياء ـ عن دولة عظيمة دافعت عن العرب والإسلام، وصدت الغزو الصليبى، واندفعت جحافلها تكتسح نصف القارة الأوروبية وتدق أبواب فيينا خمسمائة عام، ويختلط دم أبنائها بدم شهداء العروبة والإسلام فى القرم وجزر اليونان وبلاد الصقالبة ورمال فزان وأمواج سواحلنا فى البحر المتوسط. ثم غزوها من الداخل ـ تماماً مثلما فعلوا معنا ـ وحولوها من نصيرة لنا إلى عدوة، وحرَّفوا لغتها وبدَّلوا حرفها ومنعوا ارتفاع صوت الآذان فى مساجدها العالية البنيان... خمسين عاماً مثَّلوا بها ومسخوا تاريخها واختلقوا حولها الأكاذيب

ووصموها بأبشع الصفات، وحاولوا بترها من جسد الأمة الإسلامية وقطع كل صلة بينها وبين العرب والإسلام.

تركيا...

ها هى تكتشف الحقيقة. تعرف أنها منا وبنا وليست علينا. يدرك أهلها أن العرب إخوتهم، وأنه مهما حاول المغرضون فصلهم يظلون شرقيين مسلمين، بتاريخهم وبطولاتهم وأمجادهم. تعود تركيا المسلمة، وصوت المؤذن يهز أرجاء القسنطينية من جديد، ويعانق مثقفوها وعلماؤها ورجال فكرها إخوتهم العرب مثلما عانقوهم على مدى خمسة قرون متصلة من الزمان... ذلك فى أول مؤتمر يعقد فى أنقرة عن (العلاقات العربية - التركية ماضياً وحاضراً ومستقبلاً).

تركيا المسلمة تمد يدها وتنتظر أن نمد لها نحن أيدينا بالحب والإخاء.

هذا حلم جيد آخر لكم أيها الأطفال... أن تعاد الجسور بيننا وبين بلد إسلامى عظيم كتركيا، وترتفع الغشاوة عن أبصار الجميع فيدركوا أن لا قيام للعرب إلا

بالإسلام، ولا قيام للإسلام إلا بالعرب.

من يدرى؟

قد يتحقق هذا الحلم كذلك!

عن الأدب والثورة

ما هى الحضارة؟

مجموعة المظاهر الدالة على نمو وتقدم مادى.

وما الثقافة؟

مجموعة الظواهر الدالة على نمو وتقدم معنوى.

وما هى الثورة؟

عملية تغيير إلى الأفضل فى المجالين المادى والمعنوى، أى فى مجالى الحضارة والثقافة معاً.

ولا تخلو التعريفات الأخرى، على كثرتها، من الدوران حول هذا المعنى والارتباط به، ولا تعدو هذه الكثرة الاختلاف فى الألفاظ والتركيب باختلاف المفهوم فى الأذهان حسب درجة الحضارة والثقافة فى كل مجتمع

وحسب حظه من.. الثورة.

وقد تسأل: ما علاقة «الثورة» بالموضوع؟ ما صلتها بالأمر؟

وأجيبك: إذا فهمنا الثورة بمعنى **التغيير إلى الأفضل**، فإنها بالضرورة عملية استمرارية لا تتوقف، ولا يمكن لمجتمع يتقدم أن يتقدم بدونها. وليس ضرورة أن تكون «الثورة» قلباً لنظام حكم ما، أو حركة دموية تسيل فيها الدماء كالأنهار، أو مجموعة تتحرك لهدف من الأهداف، أو حتى جموعاً تتدفق لغاية من الغايات. هذه كلها ـ وغيرها ـ مجرد «وسائل» لتحقيق الثورة، هى فى واقعها حركة مؤقتة آنية إذا وقفت عند قلب نظام الحكم سميت انقلاباً، وإذا تجمدت عند تحقيق هدف معين أو غاية مخصصة سميت انتفاضة، أو حركة، أو تصحيحاً. أما شرطا الثورة الحقيقية فشيئان: **الاستمرار والشمول**. وعلى هذا الأساس يمكن الحديث عن ثورات لا تحصى فى أقطار الأرض على مدار أيام التاريخ، ثورات مستمرة وشاملة دون أن يفطن الناس إلى أنها ثورة بالمعنى المتعارف عليه.. والعكس صحيح.

الاستمرارية: لأن التغيير إلى الأفضل لا ينتهى أبداً، فالحسن هناك دائماً ما هو أحسن منه، والجيد ثمَّ دائماً ما هو أجود منه، وهكذا إلى ما لا نهاية، طلباً للكمال ورغبة فى الوصول إلى أقصى الغايات.

والشمول؛ لأن الاكتفاء بالجزئيات يعيق التقدم الكلى، ولا يحقق النمو المتكامل فى شتى جوانب الوجود الإنسانى... ماديا ومعنوياً. وهذا هو العجز.

من هنا نخلص إلى نتيجة بيِّنة بذاتها وهى أنه **لا تقدم للحضارة والثقافة بدون الثورة، ولا تحقق للثورة بدون حضارة وثقافة**. فهى حلقات ثلاث متداخلة لا تنفصل إحداها عن الأخرى، إذا انكسرت حلقة منها انفصمت سلسلة الوجود المتكامل. وندرك أن الوجود الحضارى والثقافى يتحول تلقائياً إلى حالة الجمود والتصلب، حالة سكونية «ستاتيكية»، إذا أعوزته الثورة المستمرة، وهى حالة موات المجتمع، تماماً مثلما تصير الثورة إلى حالة الحركة «الديناميكية» فى الفراغ، إذا عدمت ركيزتى الحضارة والثقافة، تدور حول نفسها وتدور إلى الأبد مثل أى كوكب منفصل عن مجموعة شمسية يمضى إلى ما لا

نهاية دون الارتباط بشيء فى سدم من الخلاء والفضاء الكونى.

قلنا: إن الحضارة مادة، والثقافة معنى.

الحضارة إذن: مبان وطرقات ومزارع ومصانع وموانىء ومستشفيات ومدارس، وما إليها بسبيل. **والثقافة** إذن: فكر وأدب وفنون موسيقى وتصوير ومسرح وشعر وقصة ورواية، وما يتبعها ـ أو ما يسبقها ـ من أخلاق وعادات وتقاليد.. الخ.

ولا انفصال، إلا بمقدار التميز الذى تواضعنا عليه. هنا أيضاً نجد ذلك التداخل المقدر، بل الامتزاج الطبيعى، الذى ينبغى ألا يغرب عن البال. فهل ما ذكرنا من مظاهر الحضارة سوى نتاج «**الفكر**»؟ وهل ما ذكرنا من ظواهر الثقافة متحقق فى غير «**المادة**»؟.

تبقى حقيقة ـ ليست حقيقية ـ نقبلها بحكم الواقع وما تعارف أهلنا عليه. أعنى ربط «الثقافة» بالفكر... وبالأدب على وجه التخصيص. وهنا تأخذ هذه الثقافة معنى المعرفة والعلم والدراية مع القراءة والكتابة.. قراءة

التعلم، والكتابة المتعمدة لإبداء رأى أو إفادة أو إفهام أو محاجَّة وكلام.

فالمثقف لدينا هو الكاتب الأديب، والأديب الكاتب هو المثقف.. ولا بأس! من هذه المنطلقات عقد فى مقر «اتحاد أدباء وكتاب» الجماهيرية (أسبوع الأدب الثورى). وكانت أيامه ولياليه حافلة جرى فيها النقاش والجدل حراً طليقاً بدون حدود ولا قيود. وكانت الغاية تحديد المفهومات والمسؤوليات، وتعيين الحقوق والواجبات. واتضح ـ بعد الأخذ والرد ـ ما يلى:

* يمكن بناء الحضارة ـ المادة بقرار.

* يحتاج تحقيق التغيير الثقافى ـ المعنوى (ما يعبر عنه ببناء الإنسان) إلى وقت أطول وصبر أوفر.

* ترتبط الحضارة بالثقافة وبالثورة ارتباطاً لا انفصام له ولا غنى عنه. وتبيَّن:

* أن الأديب (المثقف) الليبى كان ثائراً بطبعه وبطبيعة جملة الظروف التاريخية، الاقتصادية والاجتماعية، وبحكم البيئة فى الماضى، وأنه أدى واجبه كاملاً بقدر ما استطاع.

* وأنه «مستمر» فى هذا الواجب باستمرارية الثورة فى الحاضر والمستقبل.

* وأنه أعطى ويعطى وسيعطى من أجل شعبه وأمته.

وتبقى من بعد ذلك جملة «وسائل» تحقيق الثورة الثقافية ـ أو الثقافة الثورية إذا شئت ـ وهى وسائل مادية (حضارية) يمكن بحثها بروية، بل يجب بحثها، لتحقيق التكامل المنشود. . تلاحم الحلقات الثلاث المكونة لوجودنا تلاحماً يجعل منها سلسلة متماسكة واحدة.

قديماً قيل: البدايات دليل النهايات. وهى ـ لا جدال ـ تحدد الغايات. ومنذ سنوات ثمان عقدت (ندوة الفكر الثورى) وفيها دار الحوار، بل الصراع، جلياً دون غموض. ومنذ أسابيع عقد (أسبوع الأدب الثورى). وكان للفكر دوره المميز ما بين الفترتين، ولا بد أن يكون له هذا الدور فى قادم الأيام. وإن الثورة التى ترتبط بالفكر هذا الارتباط، وتتخذ منه عماد وجودها وجوهر كينونتها، وتعبر به عن **استمرارية التغيير إلى الأفضل حضارياً وثقافياً وشمولية هذا التغيير**، لا يمكن لها ـ ضرورة ـ إلا احترام

هذا الفكر ورعايته حرصاً منها على تكامل الحلقات وترسيخاً لوجودها هي ذاته.

حسن.

هناك فى عالم أدب الجماهيرية أشياء جيدة جداً.

وهناك أشياء حسنة للغاية.

لكن تظل الحقيقة المعروفة للجميع. الجيد ثَمَّ ما هو أجود منه. والحسن يوجد ما هو أحسن منه.

وهكذا.. إلى ما لا نهاية!.

الثورة الشاملة

سبتمبر.

نحن عرب الجماهيرية نفخر بهذا الشهر، ولنا الحق. وللعرب أن يعتزوا به ولهم الحق كل الحق. فى فجر فاتحه ذاك المشهود انطلقت الشرارة المؤذنة بتغير نمط الحياة فى بلادنا، وقلبت صفحة من التاريخ جديدة نكتب نحن فيها ما نشاء، وتحددت معالم مستقبل هذا الشعب، وأخذ مكانه تحت الشمس ليرى العالم فى نورها صورته الجديدة النابضة بالثورة والحركة من بعد الانعتاق.

تسع سنوات مضت منذ ذلك الصباح الذى خرجت فيه جماهير شعبنا تمزِّق ستر الظلمة، وتنزع عن عينيها الغشاوة، وتنطلق هادرة كالرعد، عارمة كالسيل، ثائرة كالعاصفة، تكسر قيودها، وترفض من بعد ذلك الصباح

أن تستذل أو تستغل.

الفاتح. الثورة. الحرية. الاشتراكية. الوحدة.

* انفتحي يا بوابة القلعة العاتية، وافسحي الطريق أمام الجموع لتندفع في طريق التقدم والخلاص.

تفتحي يا زهور المستقبل، وأينعي يا شجرة الحياة الكريمة، ولدى ثمراً طيباً يعم الناس.. كل الناس.. ولا يستأثر به أحد دون أحد. افتحي عيونك الواسعة يا أجيال الغد وحدِّقي في الشمس ولا يطرف لك جفن.

* ثورة على الجمود والركود والقيود. جامحة هي لا تنافق ولا تهادن ولا تتهاون. شجاعة في الحق، جريئة في الواجب، غير هيَّابة ولا وجلة، لا تخشى في الله لومة لائم. انتفض أيها الشعب المكبل على مدى القرون الطويلة وحطم أغلالك الحديدة، واملك زمام أمرك بيدك. فلتنتصب قامتك عالية ليراك الجميع ويخافك الجميع ويحترم إرادتك الجميع.

* ثورة من أجل الإنسان على هذه الأرض الطيبة. تحرِّره من الخوف والعوز، وبها ينعتق من معوقات الخارج

والداخل. ترفع عنه وصمة الاحتلال الأجنبى وعار قواعده، وتثأر للآباء والأجداد فتدفع ببقايا الفاشست إلى عرض البحر ليعودوا من حيث أتوا، وتخلع أنياب شركات النفط مصاصة دماء الشعوب وتستخلص حق الشعب منها، وترفع راية حرية الفرد والمجتمع فى هذا الوطن.. فلا سيد غير الشعب الذى منه يأتى كل شىء وإليه كل شىء يعود بها تندفع الجماهير لتحكم ذاتها بذاتها وتسوس أمرها بنفسها، وتزحف نحو الضوء خارجة من ظلمة الكهوف السحيقة دون خوف ولا وجل.

* ثورة ـ ترفض أن يكون فى أرضنا موقع لمحتكر أو مستغل. تعمِّم الخير على الجميع، وتعدل فى التوزيع بين أبناء الوطن، تقول للمحسن: أحسنت.. فيثاب، وللمسيء: أخطأت.. فله العقاب. لا مظلوم، ولا مغبون، ولا همزة لمزة، جمع ماله وعدده، وحسب أن ماله أخلده. سواسية كأسنان المشط، لا فضل لأحد على أحدٍ إلا بالتقوى والعمل الخير الصالح. تعلنها اشتراكية نابعة من ديننا، تعيد له حيويته وتثبت أنه الصالح لكل زمان ومكان.

* ثورة تمد ناظريها إلى هذه الرقعة الواسعة من المحيط إلى الخليج، تهتف بأبنائها: هلموا اشبكوا أيديكم وتكاتفوا لصد العدوان ودفع الهجمة ورد الكيد. توحدوا صفوفاً صفوفاً وكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً... كيلا تزدردكم الحيتان الفاغرة الأفواه. تيقظوا قبل أن يعمكم السيل فتذهبوا مع زبده مزقاً مشتتة يبتلعها اليم فى نهاية المصب. يا هذا الجسد الواحد! فلتتماسك أعضاؤك الرخوة، ولتهب أطرافك المتهدلة، ولتصبح عملاقاً كما كنت يوم كنت ذلك العملاق.

فى كل مجال تضرب المثل، وفى كل ميدان تقدم الأسوة الحسنة؛ فى السياسة والفكر والاقتصاد والاجتماع والثقافة والفن والصناعة والعلم. تبنى وتبنى دون كلل، وتنطلق كالريح تجتث الجذور العفنة وتنقّى التربة الطاهرة من الأعشاب الضارة، تثير الأرض وتسقى الزرع.

هذه هى الثورة الشاملة!

علم تغيير المجتمع

يعرِّفون الثورة بأنها: **علم تغيير المجتمع**. ويضيفون شرطاً: **إلى الأحسن**.

فهى إذن «علم» بالمعنى المحدد للكلمة. هى «فن» بالاصطلاح المتوارث القديم.. تقوم على الأسس التى ينبنى عليها العلم أو الفن. ذلك لأن الثورة فى أساسها «فكر» له خطته ومنهجه وأهدافه القريبة والبعيدة.

خطة مدروسة للفعل، تحسب كل حركة، وتراقب الظروف والأحوال، وتتحسب للمواقف، وتميز بين الأعداء والأصدقاء.

ومنهج واضح محدد الملامح، يعرف منطلقه وتدرك مبادؤه وتتبين سماته منذ اليوم الأول للفعل.

وأهداف نابعة من الواقع فى طريق المثال، سامية عزيزة

قد تبدو بعيدة التحقيق صعبة المنال لكنها ـ مع العرق الناضح والدم المبذول ـ تصبح حقائق واقعة مدهشة رائعة تأخذ بالألباب.

هذا كله فى سبيل «تغيير المجتمع» وتبديل أحواله وإعادة تشكيله من جديد وصياغة كينونته لصالح صيرورته: تغييره من مجتمع ساكن «ستاتيكى» يلفه الخمود ويشمله الركود وتحيطه البلادة، إلى مجتمع متحرك «ديناميكى» ملتهب نشط مؤثر فعال، يموج بالحيوية ويفور بالثقة فى النفس والمستقبل على حد سواء. وهذا هو شرط التعريف: **إلى الأحسن**.

إن التغيير قد يقع فى أى مجتمع بحكم سنة الحياة وناموس الوجود وهو هنا يسمى تغيراً وليس تغييراً. قد يكون فى الشكل أو فى المضمون، وقد يكون تغيراً إلى الأسوأ بحكم مؤثرات خارجية وعوامل أجنبية يأخذ بها المجتمع بوعى أو بدون وعى، ولا ثورة هناك ولا ثوار. مهمة «الثورة» أن يتم التغيير إلى الأحسن.. بوعى.. أعنى: **بخطة، ومنهج، وأهداف**.

هنا نرجع إلى القرآن الكريم، شريعة المجتمع فى جماهيريتنا، به نسترشد ومن آياته نقتبس. ففيه ورد: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» (آية: 11 ـ سورة: الرعد). وهى آية واضحة الدلالة على أن الحكم الإلهى ترك للقوم، أو للشعب أو الجماهير، عملية التغيير ليقوموا هم أنفسهم بها، فلا ينتظرون معجزة إلهية تأتي من السماء لتحوِّل بؤسهم سعادة وتخلفهم تقدماً وسكونهم حركة تنبض بالحياة. وهذا يعنى وجوب وعيهم بواقعهم وتطلعهم إلى مستقبل أكثر إشراقاً، ومن ثم: الثورة على هذا الواقع فى سبيل المستقبل.

وليس عجيباً بعد هذا أن ترد فكرة «الحسن» و«الإحسان» بمعنى الخير والاتقان والتمكن من الأمور وصياغتها بالدرجة القصوى من الأحكام، وترد مشتقاتها فى الكتاب العزيز ما يقرب من مائتى مرة، وكلها تحض على هذا «الأحسن» وتدعو إليه وتعد بثواب المحسنين عملاً فى يومهم وغدهم: ﴿ **للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة** ﴾ (10: الزمر)، ﴿ **للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير** ﴾ (30: النحل).

وليس غريباً، كذلك، أن يجمع مثقفو هذه الأمة على أن خلاص الفرد فى المجتمع وسعادته لا تتم إلا بثلاث ركائز رئيسية، هى مراحل بعضها فوق بعض درجات: أولها؛ الإسلام - بمعنى التسليم والقبول والرضا بمنهج فى الحياة والسلوك معروف. وثانيها؛ **الإيمان** - بمعنى التصديق والإقرار والاعتناق للمبدأ والذود عنه. وثالثها؛ **الإحسان** - وهو المرتبة العليا تكون من بعد الإسلام والإيمان. وهى قمة تحقق الوجود الإنسانى المرتبط بالمثل والقيم المعتمد على المبادىء الرفيعة، الساعى فى سبيل الخير من أجل المجتمع والناس. وهذه حقيقة الثائر على ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، الممتلىء ثقة، المقتحم الصعاب فى سبيل «الأحسن» المتطلع أبداً إلى المستقبل!

الذهب الذى لا لون له

فإذا امتلك المجتمع الثائر ما ذكرناه كان لا بد له لتحقيق ثورته من أسلحة تتعدد وتتنوع. بيد أن أهم سلاح فى يد الثوار هو: **الوقت**.

ونحن صغار علَّمنا أساتذتنا أن: **الوقت من ذهب**. وإذا كان الذهب هو ما تقيَّم به الأشياء، فإن الوقت الذهبى هو أغلى الأشياء وأثمنها. فلا الذهب الأصفر، ولا الأسود، ولا الأبيض، ولا ألوان قوس قزح كلها تعادل فى قيمتها هذا الذهب الذى لا لون له. إنه السلاح الماضى فى يد الثورة. ومن هنا كان صحيحاً القول بأنها «**فى سباق مع الزمن**».

الخروج من دائرة التخلف، وبناء المصانع والمدارس والمنشآت، وتفجير القوى الكامنة، وإطلاق القدرات

المعطلة، واستغلال خيرات الأرض، وتمكين الجماهير من إدراك الحقائق، وتنمية الكفاءات العلمية والتقنية، والدخول إلى عصر الصناعة المتطورة، ومصارعة القوى المتكالبة المتوثبة، وحماية الوطن والدفاع عنه، والتبشير بدعوة الثورة، وتحرير الأفراد من الهواجس والمخاوف، وما إليها من مبادىء «الثورة الشاملة».. تحتاج كلها إلى عنصر الزمن..

من هنا تأتى هذه «الفورة»، فى طبيعة «الثورة». هى تدرك قيمة الوقت وتعرف أهميته، وهى تريد أن تختصر الزمان، وتلحق بركب التقدم وتعوض ما فات بأسرع ما يمكن.. بل أسرع مما يمكن. فالإمكان هنا يتحول إلى «وجوب».. ضرورة حتمية لا غنى عنها لانتصار الثورة وتحقيق أهدافها. **ولا يمكنها.. أبداً لا يمكنها.. الانتظار!**

* * *

تسع سنوات مضت منذ الفاتح من سبتمبر.

وألتفت ـ هنيهة ـ إلى الوراء لأقارن بين ما كان قبله وما هو كائن الآن. وأجد أن أشياء عظيمة ورائعة من الأهداف تحققت، وأن غيرها فى الطريق إلى التحقيق. ففى هذه

السنوات القليلة قفزنا فى مستقبل الزمان قفزات كانت أحلاماً تراودنا نتطلع إليها بلهفة وشوق، وقد تأخذ بعضنا الدهشة مما حققناه، ولا يصدِّق.

لن نتوقف عن الحلم فى المستقبل، فإن الأعمال المعجزة كانت أحلاماً للأفراد والجماعات ذات يوم.

فلتحلمى يا أجيال الغد، ولتحدِّقى فى الشمس بعين لا تطرف، ولتمضى فى طريق النور والحرية والتقدم.. **طريق الثورة الدائمة!**

فن تحطيم الجماجم الكبيرة

قبيلة بنى كلب كانت أفضل حالاً منا.
بطون هذيل وخثعم ومخزوم
كانت خيراً منا.

قبائل خزاعة وقضاعة وبنى أنف الناقة كانت أكثر وعياً بأبعاد المواقف الثقافية، وأكثر إدراكاً لطبيعة ظروف الثقافة وأشد اعتزازاً بالمثقفين من أبنائها. كانت ألصق بهم، وهم بها الصق. كانت إذا نبغ فيها شاعر، أو استشفت بوادر نبوغ أو بداية تطلع واعد من جملة أبيات جيدة السبك سليمة البناء متماسكة التعبير، أو حتى من بيت واحد ينطلق بإلهام عبقرى، دقت الطبول ونحرت الذبائح ومدت الأسمطة وتكأكأ الجميع يتحلقون حول الشاعر الواعد، وله الصدارة فى المجلس وله بداية الحديث ونهايته.

كانت العرب «تعلن» عن شاعرها.. تفخر به وتعتز.. وتدفعه إلى مزيد من الإبداع والخلق بمزيد من التشجيع والتوقير والإكبار. كانت تقول له: «نحن معك.. نحن وراءك.. نحن ننصت إليك، ونحفظ قصائدك ونرددها ونقدرها. مزيداً من العطاء أيها الشاعر، مـزيداً من الكلمات المجنحة، مزيداً من أغنياتك الرائعات»!!.

كان الشاعر يلتهب خياله، وتسبح روحه فى السماوات العلى، يستمد وحيه من عالم العرائس الحسان، ويزور وادى عبقر ينصت إلى أناشيد أهله ليصوغها لغة مفعمة بالجمال ويسبكها قصائد خالدة على مدى الدهور. وكيف لا يفعل وهو يعلم أن الجميع ينتظرون كلماته الصادحة على شوق، ويصفقون طرباً كلما صدح ويمزقون جلابيبهم من شدة الجذب والوجد كلما سمعوا منه تلك الكلمات؟!

رحم الله بنى كلب وبنى أنف الناقة!

رحم الله أيضاً أولئك الذين كان الشاعر يأتيهم فيقف فى الديوان، والكل خاشع منصت، فيتمايل زهواً وهو ينشد قصائده، ويرفع رأسه ويجول بعينيه يرى وقع كلماته

الرائعات، ثم يختم فيرتفع صوت صاحب الديوان: «يا غلام! احش فمه ذهباً.. كلا.. كلا.. احشه زمرداً وياقوتاً وزبرجداً.. احش فمه لؤلؤاً عشر مرات!!».

رحم الله ذاك الذى كان يجيئه مترجم فلسفة اليونان ورياضيات الهنود وحكم بنى ساسان، فيكافئه على جهده المبذول وعرقه المنضوح وسهره الليالى الطوال ينقل علم الدنيا إلى لغة العرب ومعرفة البشرية إلى لسان الضاد على ضوء شمعة يذوب مثلها كل ليلة، بوزن ما جاء به جواهر وأحجاراً كريمة.. ولو كان مكتوباً على ألواح من رخام!

بهذا كان الشعر العربى الخالد، وبه كان العلم والمعرفة، وكانت حضارة العرب ومجد الإسلام.

بالتشجيع..

بالاحترام..

بالكلمة الطيبة والجزاء الحسن..

كان المثقفون، شعراء وكتاباً وفقهاء ونحاة ومناطقة ومؤرخين وأطباء وكيميائيين وما شئت من الطوائف،

موطن الرعاية والحفاوة والتقدير. كانوا يشعرون باحتضان المجتمع لهم، على مختلف مستوياته، فكان عطاؤهم غزيراً ونتاجهم بقدر ما قوبلوا به من تكريم. حتى إذا توفاهم الله (وكل حى للموت) كانوا يعلمون أن ذكرهم سيخلد، وأن ذكراهم لن يهال من فوقها التراب.

فكيف.. كيف.. بالله عليك.. نعجب بعد هذا من شموخ حضارتنا وروعة ماضينا وعظمة ما ترك لنا الأجداد؟!.

وكيف.. كيف.. بالله عليك.. نطلب الآن ما كان، ونلح فى الطلب، ونضرب كفاً بكف حين نرى ما نرى ونقرأ ما نقرأ ونكتب ما نكتب؟!.

«**فارجع البصر**». ماذا ترى؟

أصبحت الثقافة لعنة تلازم صاحبها. فكأنما هو طريد الجميع. هو المتهم الأول، وهو الملعون الأول والأخير، وهو السبب فى كل شىء وهو النتيجة فى الوقت ذاته. عليه يستمطر السخط وفوق يافوخه تهبط القواديم. إن أقبل استقبل بالوجوم والوجه القمطرير، وإن أدبر استدبر

بالعبوس ومط الشفاه. همه الدفاع عن نفسه، وشغله الشاغل تبرئة ساحته، ووقته ضائع فى اللهاث بين صد السهام، وردع اللئام، والبحث عن لقمة الطعام!!

«**ثم ارجع البصر كرتين**». فماذا ترى؟

«**ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير**».

الشاعر، أى شاعر، يُنْحر، أوْ «ينْتحـر»، بدلاً من أن تنحر له الذبائح. والمثقف، كاتباً وعالماً، تدق رأسه بدلاً من أن تدق له الطبول.

وتمد للجميع ألسنة حداد بدلاً من أن تمد لهم الأسمطة والمآدب.

«**ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت**».

على امتداد رقعة هذا الوطن الكبير، من محيطه إلى خليجه، ومن بحره إلى صَحرائه، يُنبذ مثقفوه نبذاً ما له من نظير. فماذا جنوا ليضموا إلى زمر الجربى والمبروصين والمجذومين؟ ماذا ارتكبوا من إثم ليلعنوا على مدى الأيام؟ ما الذى جرى لهذه الأمة حتى تفرط فى كنزها المكنوز، عماد نهضتها وأساس تقدمها وصلب حضارتها؟ أهى

علامات التأخر والانحطاط؟ أم هى علامات الساعة حين يسود الجهل وتتسنم الجهالة ويصبح الشاعر والكاتب والأديب.. يصبح المثقف كصالح فى ثمود؟!

الأحياء منهم والأموات

دعك الآن من هؤلاء الضاربين فى مناكب الأرض. دعك من الغرباء العائشين، أبناء السبيل، عيال الله، المثقفين فى الوطن العربى... وقارن:

كل الأمم تفخر بنوابغها وتشيد بذكراهم.. ما عدانا.

للإنكليز شكسبير وشوسر ومارلو وبايرون ومن شاكلهم، وللفرنسيين فولتير ومونتسكيو وروسو وهوغو ومن شابههم، وللطليان دانتى ومن ماثله، وللإسبان سرفانتس ومن ناظره، وللروس دستويفسكى وغوركى وأسماء أخرى للهنود وأهل الصين وحتى.. الأميركيين شمالاً وجنوباً. كلهم معززون مكرمون تنصب لهم التذكارات وتنشر أعمالهم وتدرس آلاف المرات... سوانا، فنحن مشغولون، مشغوفون، بتحطيم رجالنا وأفذاذنا.

تظهر الدراسة تلو الدراسة لتسيء بدلاً من أن تحسن. وتترى البحوث لتبين المعايب والمثالب، وتنفر الجيل الجديد من الجيل القديم فالأقدم فالأقدم حتى أبينا إسماعيل.. عليه السلام!

هكذا نحن..

منذ «مثالب الوزيرين» حتى «سرقات المتنبى» إلى «ماسونية» الأفغانى و«استعمارية» محمد عبده وعلاقات الكواكبى «المشبوهة»، و«انحرافات» الشارف و «لخبطات» المهدوى... إلى السياب وقبانى.. وما شئت من الأسماء حية «تتلفت» وميتة لا «يلتفت» إليها إلا باللعنات!.

ماذا بقى لنا بعد أن برعنا فى هذا الفن الرهيب: فن تحطيم الجماجم الكبيرة... الأحياء منها والأموات؟!.

ماذا ينتظر من المثقف إذا كان هو لا ينتظر سوى النكران والجحود؟

ما الذى يمكن عمله في أمة صار هواها تعذيب النابهين من الأبناء، وصلب النابغين النجباء، ومضغ أكباد الكتاب والأدباء؟!

لا شيء. لا شيء مطلقاً سوى هذا الذى يحدث.

نحن بين طريد وطارد، وشريد وشارد، وصادر غير وارد. نحن بين لاعن وملعون، وغابن ومغبون، وإنا لله وإنا إليه راجعون! فهل هذا حال أمة تبغى أن تأخذ مكانها تحت الشمس؟ وهل هذا سبيل بناء الحضارة؟ وهل هذا طريق إعادة الأمجاد؟

والحل؟.. تسألنى.

وأجيبك: أن نعود كما كنا. نحتفل بالنبوغ، ونفرش له الطريق بالكلمة الطيبة، ونحتضن البراعم بأكف المودة والحب، ونثنى على المحسن المجيد أياً كان وكيف كان. يجب أن يصب مزيد من الزيت فى قناديل أهل الثقافة والعلم لتزداد ذبالاتها توهجاً وسطوعاً، لا أن يسخن ويدلق على رؤوسهم أجمعين. يجب أن يعاد النظر فى «مكانة» المثقف العربى و«مكانه». يجب أن ينظر بتقدير وتوقير إلى دوره الحضارى وعطائه الفكرى وأن «يُحترم» هذا الدور على المستوى المادى والمعنوى وأن يعطى حقه كاملاً غير منقوص لنطلب منه بعدها أداء حق المجتمع عليه.

وعندما تنتهى طوابير المشردين والمطارَدين والخائفين، وتختفى ظاهرة «الذلة الثقافية» بكل ذيولها ومظاهرها، ويعرف المثقف الحقيقى أن له حقاً معلوماً وواجباً مفهوماً، يمكن أن تنطلق «الثورة الثقافية» بكل معانيها وشموليتها. يمكن بعدها أن تتفجر القدرات الإبداعية العظيمة. يمكن أن نبنى حضارتنا الجديدة الشامخة الصرح.

و.. نعيد ما كان!

من "الأسبوع الثقافي"

1977 - 1976

لغة الزيوزيو !

كانت أوَّل آية فى قرآننا العزيز الحكيم: ﴿إقرأ باسم ربك الذى خلق﴾ وكان الحرف كريماً عند الله حتى أقسم به فى مفتتح عديد من السور، ثم قرن الحرف والقلم فأوحى ﴿ن. والقلم وما يسطرون﴾.

وفى سجل أهل الكتاب يفتتح يوحنَّا إنجيله قائلاً: (فى البدء كان الكلمة. وكان الكلمة عند الله. وكان الكلمة الله).

فلنصرف النظر عن تلك المناقشات الطويلة المملَّة.. ولنأخذ بأبسط معانى الكلمة. فلنقل إنَّها (اللغة). لنقل إنها (اللوغوس) حسب لسان بنى اليونان. ولنلاحظ قرب الكلمتين فى اللسان العربى واليونانى.

فلو لم تكن الكلمة عزيزة لما كانت لها هذه المكانة

الرفيعة فى أصـول الأديان، وعنـد مختلف الحضارات ومتعاقب المدنيات، ولدى الإنسانية قاطبة منذ بدأ الإنسان ينطق بها لسانه ويفهم جنانه. فهى التى ميَّزت الإنسان عن الحيوان وهى التى حفظت له تاريخه وعلمه وحكمته وبها فضِّل على العالمين.

فصونها إذن صون لكرامة الإنسان ذاته، وفى احترامها تقدير له وإكبار.

والكلمة سلاح أيضاً، إنها تحيى وتميت. هى سلاح فى يد المناضلين فى سبيل حريتهم، تلهب الأرواح بالحماسة والغيرة فتندفع غير مبالية ولا مكترثة من أجل الخلاص من العبودية أيَّاً كانت وكيف كانت. بها تبدأ الثورات وبها تستمر وبها تحقق أهدافها العاجلة والآجلة. وهى سلاح ذو حدين إذا أسىء استعماله أمكن أن يتحوَّل إلى أداة هدم رهيبة لا تصيب إلَّا المقتل. وبها تبنى المجتمعات الجديدة المنتفضة بعد طول رقاد حين تحمل الكلمات الأفكار، تنشرها بين الناس وتبذرها فى أفئدتهم وعقولهم، وتوقظ نفوسهم، وتجعلهم المؤمنين بها المدافعين عنها أيما دفاع.

والكلمة ـ من بعد هذا كله ـ واضحة جلية لا تحتمل الغمغمة ولا الهمهمة. فإن أصابها أى منهما تحوَّلت إلى طنين كطنين الذباب لا يستبين له معنى ولا يؤدى إلى غاية سوى غاية التشويش والإزعاج، واعوجَّت الحروف فيها والتوت حتى باتت رطانة لا تفهم وجمجمة لا تدرك، واستوت وإشارات الأدنى من الحيوان وإيمائه بعضه لبعض.

هل يمكنك أن تدرك من لغة العصافير المتجمِّعة فوق الأشجار عند ساعة الغروب إلاَّ: «زيوزيو»؟!!

قد تكون لغة ـ كما يزعم بعض أهل العلم ـ وقد لا تكون. وهى إن كانت كذلك صارت (لغة خاصة) بفريق خاص لا يتعدَّى التفاهم بين أفراده هذه الزقزقة المردَّدة والشقشقة المعادة المكرَّرة. تستطيع أن تسمعها كل يوم، وهى هى لا تتغيَّر ولا تتبدَّل ولا تتطوَّر. منذ ملايين السنين والعصافير لا تملك إلاَّ هذه «الزِّيْوزِيْو»..

وشتَّان بين من (يزوّك) بصوت قد يعلو إذا تجمَّع فيغطى على بقية الأصوات، وبين من (ينطق) بلسان مبين لا تلعثم

فيه ولا تعثُّر. إنَّ الأوَّل يردِّد ما حفظه بالتلقين أو بالطبيعة، والثانى يفكِّر فى ما يقول. أوَّلهما قد لا يعلم كنه ما يصدر من صوت وثانيهما يعمل ذهنه قبل أن يعمل لسانه الذى بين شدقيه ليعبِّر عن شىء فى نفسه.. أو فى عقله. أوَّلهما واحد من ملايين الكائنات المصوّتة وثانيهما إنسان ناطق. وهذا هو الفرق الأكبر والأهم. الأوَّل لا يعرف معنى الكلمة، ولا يعرف أنَّه يتكلَّم، والثانى يملك الكلمة.. لأنَّه أُمِر أن يقرأ فقرأ وأدرك السر الأكبر.. سر الحرف المقدَّس..

إنَّ من يُعطى السر الأكبر يجب أن يتقيَّد باحترامه وتقديسه، يجب أن لا يبتذله ولا يكون ممَّن يحرِّفون الكَلِم عن مواضعه. ذلك لأنَّ هذا التحريف هو الذى يقلب الكلمة من سيف مسلول فى سبيل الحق والخير والجمال إلى خنجر يطعن الظهر فى الظلام، ولا يكون التحريف أبداً فى لغة جليَّة واضحة النبرات، يرتفع بها الصوت قوياً غير مرتَّج على صاحبه. إنَّه يكون دائماً عندما يغمغم به أو يهمس به همساً.. فقط ليس غير!.

الثورة الكبرى

ما الذى يتبادر إلى ذهنك عندما تسمع الحديث عن (الثورة الثقافية)؟ أعنى: ما أوَّل شىء تفكر فيه حين يعرض هذا الأمر فى مجلس أو مؤتمر أو تنصت إلى متحدِّث عنه فى المذياع مثلاً؟

أوشك أن أسمعك تقول: الجامعة. المدرسة. الكتاب. الصحيفة. الإذاعة. المركز الثقافى. المطبعة. المكتبة. المثقَّف...

هذا حسن جداً. فقط قطعنا نصف الطريق. غير أنَّ علينا أن نقطع النصف الآخر حتى نبلغ آخر الشوط.. أليس كذلك؟ ورغم اتفاقنا فى النصف الأوَّل إلَّا أنَّه يبدو لى ضرورة الاتفاق فى النصف الثانى، وحتى لا يمضى كل منَّا فى سبيله.. دون وداع. وفى ظنِّى أنَّ المسألة فى حاجة

إلى شىء من التوضيح.

كان الإعلان الثانى عن الثورة الثقافية فى ملتقى أساتذة الجامعات ذا دلالة ومغزى. فليس ثمَّة أجدر بريادة هذه الثورة غيرهم، باعتبارهم أبناء المجتمع الذين حصلوا ـ بما أتاحه لهم هذا المجتمع وبما بذلوه هم أنفسهم من جهد ـ على نصيب من العلم فى مختلف التخصُّصات يمكنهم من الإدلاء بالرأى الحر المسؤول الواعى، المدرك لأبعاد القضية.

* * *

غير أن هذا الإعلان فى هذه المناسبة وأمام أساتذة الجامعة يجب أن لا يعنى شيئاً آخر سوى تحميل هؤلاء الأساتذة مسؤوليتهم التاريخية والربط بين أكبر مؤسسة علمية فى البلاد وبين المجتمع، ليقوموا هم بواجبهم فى ريادة الثورة الثقافية، التحاماً بالشعب وتعبيراً عن تطلعاته بأسلوب علمى منهجى واعٍ بعيد عن التقوقع خالص من انفصال الفرد عن المجتمع، أو الجزء عن الكل.

* * *

وقد ذكرت لك منذ قليل ما قد تفكِّر فيه، أوَّل مرة، حين تسمع حديث (الثورة الثقافية). ثم بينت كيف أعلن، للمرَّة الثانية، عنها فى ملتقى أساتذة الجامعات. وهنا نقف لتوضيح أمر مهم للغاية.. هو: حقيقة هذه الثورة. معناها ومفهومها.

فى بلادنا، وفى الوطن العربى كلِّه، ارتبطت كلمة - الثقافة بمعنى العلم والتعليم. هذا رجل مثقَّف أى أنَّه تعلَّم وقرأ واستوعب حظا - يقل ويكثر - من المعرفة الخاصة والعامة. وحين يرد الكلام عن الثقافة لا نكاد نفهم منه سوى ما يشير إلى الكتاب ونحوه، حتى صارت الكلمة ذات مدلول خاص قد ينفع وقد يضر. ومن هنا كان فهم الكثيرين للثورة الثقافية على أساس ما يتعلَّق منها بهذا الموضوع. غير أنَّ هذا غير صحيح على الإطلاق.

* * *

ما ينبغى تبيانه هو أنَّ عبارة (الثورة الثقافية) تعنى فى التعبير الإنكليزى (كلتشرال رفليوشن) - بينما يقابل معنى (المثقَّف) تعبير (ذى انتلكتشوال). ومعذرة لهذه المقابلة

فهى - للأسف - التى ستحسم الموقف. وحين نستعمل التعبير الأجنبى فإن المعنى لا يكون «ثورة فى التعليم وأدوات المعرفة وإيصال الأفكار» كما هو الآن فى العربية بل يصبح «الثورة الحضارية» أعنى.. الثورة فى المجتمع وتركيبه وتقاليده وعاداته وأنماط سلوكه وطرق معيشته. عمليَّة تغيير شاملة يستبدل فيها الفاسد بالصالح.. لبناء جديد على أسس يتَّفق عليها، يقودها المتعلمون لصالح عامَّة الشعب.. أى يقودها المثقَّفون.

* * *

وهنا نأتى إلى التعبير الأجنبى مرَّة أخرى للحديث عن «المثقَّف» فهو عندهم: «الذهنى».. المشتغل بالمسائل الذهنية أو العقلية أو الفكرية. ذلك الذى يعمل عقله فى المسائل العامَّة أو الخاصة للوصول إلى حقيقتها مستعيناً بقراءة تجارب الآخرين والاطلاع على أفكارهم، لاتباعها أو مناقضتها أو الإضافة إليها أو الحذف منها.

فالمثقَّف هنا بالضرورة متعلِّم أو عالم. لكنَّ المتعلِّم ليس بالضرورة مثقَّفاً. فهو قد يكون عالماً بالكيمياء أو الفلك أو الذرة أو زراعة النباتات، لكنَّه ليس مثقَّفاً بالمعنى الأجنبى.

ولا يلغى هذا دوره فى المجتمع بقدر ما يحدِّد له مجاله الذى يتحرَّك فيه.

* * *

هنا منتصف الطريق. فإلى ماذا نشير لنكمل الطريق كله؟

نشير إلى أنَّ (الثورة الثقافية) لا تعنى الكتاب، والجامعة والمدرسة، والمطبعة، والصحيفة، فحسب.. بل تعنى: تغيير المجتمع إلى الأحسن. إعادة البناء الحضارى. الرؤية الجديدة لتيار الحياة المتدفِّق. دفع هذا التيار فى مسار أفضل. تنقيته من الشوائب والمعوقات. النظر بغضب - أعنى غضب الثورة - إلى كل ما يكدِّر صفاءه. إزالة الرواسب والطحالب والعمل الجاد لتعميق مجرى التيَّار. وهذا ما يدخل تحت باب: الأصالة والتجديد.

* * *

الثورة الثقافيَّة إذن هى الثورة الاجتماعية، يتداخل فيها أفراد المجتمع بمختلف تخصصاتهم. تهتم بالأسرة وبشؤون المرأة والرجل على حدٍّ سواء. بالطفل. بالنادى. بالتقاليد.

وبتكوين عادات جديدة، وأنماط سلوك جديدة، وبالنظرة الجديدة إلى الحياة. وهى تتم عادة إمَّا مصاحبة للثورة السياسية والاقتصادية، وإمَّا بعد تهيئة المناخ المناسب عن طريقهما. فهى إذن: الثورة الشاملة. أى: الثورة الكبرى.

* * *

يبقى إذن دوران. أحدهما دور المثقَّفين (واستعمل التعبير على كره. إذ هو ليس تعبيراً عربياً إلَّا تجاوزاً. وأفضل منه: العلماء أو المتعلِّمون) وهو دور لا بد من أدائه بحكم بروزهم فى تخصصات، لا غنى للمجتمع عنها وعن الأخذ برأيهم فيها.

والآخر: دور الأجهزة الثقافيَّة، وهنا يأتى ما ذكرنا عن الكتاب والإذاعة والجامعة والمدرسة إذ هى أدوات توصيل الأفكار وطرحها ومناقشتها، هى باختصار: أدوات التثوير.

* * *

وعلى هذا الأساس نمضى يداً فى يد.. أستاذ الجامعة،

وطالبها، وإمـام المسجد، والكـاتب، وقادة النقـابات والاتحادات ـ رجالاً ونساء . . يبشِّرون بالثورة الكبرى على أساس من كتاب الله العزيز، وهدى من أصالة قيمنا ومبادئنا، فى سبيل تجديد حياة المجتمع وتغيير الفاسد وترسيخ الصالح. لا يتخلَّى أحد عن مكانه، ولا ينعزل رائد ينتظر منه الخير، ولا يتخوَّف إنسان من إبداء رأى والإشـارة إلى انحراف والتنبيـه إلى مواقـع الطحـالب والرواسب والمعوقات فى طريق التيَّار المتدفِّق من أجل الخير والنماء.

العدد .. والعدة

واحد . . اثنان . . عشرة . . عشرون . . مائة مليون .

فلتتوال الأرقام اللامتناهية إلى أبد الآبدين، فإنَّك مستطيع أن تقضى حياتك كلها تكدِّسها بعضها فوق بعض بأصابعك أو مسبحتك أو بالعقل الآلى دون غاية تبلغها. وتقضى ملايين الحيوات دون أن تصل إلى نهاية لها . . فإنَّها تمضى إلى ما شاء الله .

إنَّ **الكم** ـ على هذا الأساس ـ غير متناه . وهو قد يكون كماً مهملاً لا قيمة له . أمَّا ذو القيمة المحدَّدة فهو ما يعرف **بالكيف** . أعنى ماهية الشىء . . كيفيته . . ما هو . هذا هو الأمر المهم، وهو الذى تبنى عليه القيم والمفهومات وترسَّخ المبادىء والنظم، ما كان منها فى المجتمع أو الاقتصاد أو السياسة أو الفكر على وجه العموم . .

فى الفلسفة، كما فى علم الاجتماع وفى الدين، يهتم الداعية بالكيف باعتباره قيمة يمكنه بها أن يحدِّد مجال دعوته. ولا ينظر إلى الكم إلاَّ باعتباره تكثراً.. أعنى تعدُّد النسخ التى قد تحصى بالآلاف أو تعد بالملايين أو تتجاوزها بكثير. لكن الكيف يظل هو الأصل وهو مركز الدائرة وبؤرة الاهتمام. ومن هنا كانت الدعوات الكبرى منبثقة عن نوعيات خاصة لا تتأثَّر بالعدد بقدر ما تتأثَّر بالنمط أو الأنموذج.

فما الذى نريد أن نصل إليه من هذه المقدِّمة؟

الذى نبغيه أن نبين خطأ المفهوم الجارى على الألسنة والدائر فى العقول من أنَّ الشعب الليبى شعب قليل العدد، ولذا فهو ليس بمستطيع أن يقوم بما وطَّد العزم عليه، ويحقِّق الآمال العظيمة فى ريادة الثورة الكبرى، وضرب المثل لشعوب المنطقة فى الانطلاق بعد تحقيق الانعتاق.

ومقولة مثل هذه لها خطرها الكبير فى تثبيط الهمم، ونشر الدعاوى المضادَّة لطبيعة التقدم والتغيير إلى الأفضل. ولا يقتصر تأثيرها على الفرد، بل هى تتجاوزه

إلى المجتمع لتنتشر كالطاعون تضرب دون رحمة هنا وهناك، فلا تبقى ولا تذر.

هل صحيح أنَّنا شعب قليل العدد؟

إنَّني - أوَّلاً - لأشك كل الشك فى صحة الرقم الذى يردِّد دائماً: مليونان؟ ولا ريب لدى فى عدم دقَّة التعداد - بتعبير مخفَّف جداً - لأسباب يعرفها الراسخون فى العلم.

ثم ماذا يهمُّ، ثانياً، لو كان هذا هو الرقم الصحيح؟

ألا يستطيع مليونان من البشر أن يفعلوا شيئاً؟ بلى. إنَّهم لقادرون. ولننظر فى التاريخ:

● إنَّ سكان أثينا - مثلاً - فى قمَّة مجدها، بكل فلاسفتها وشعرائها وفنَّانيها وقادتها وساستها، بكل تراثها الزاخر، لم يتجاوز عددهم ثلاثين ألفاً من البشر.

● وكم بلغ جند الإسلام من العرب حين خرجوا من جزيرتهم يحطمون امبراطوريتى فارس والروم ويكتسحون شمال إفريقيا ويفتحون الدنيا القديمة.. من المحيط حتى جبال سرنديب؟ بضعة آلاف.. لا يزيدون.

ولننظر إلى الواقع:

● سكّان السويد - أرقى بلد أوروبى معاصر - لا يتجاوزون خمسة ملايين. وقس على هذا النرويج وغيرها من دول شمال أوروبا.

● فى استراليا، القارة العظيمة المترامية الأطراف بكل معانى القارَّة العظيمة، قد لا يزيد عدد أهلها عن خمسة عشر مليوناً.

ولماذا نمضى إلى بعيد؟

● كم عدد اليهود محتلِّى فلسطين.. أولئك الذين جمعوا من آفاق الأرض، وحشدوا لمصارعة المائة مليون؟..

ثمَّ.. هل صحيح أنَّ العدد ذو أهميَّة فى نفع أو ضر؟

لو كان الأمر كذلك لما احتلّ، وحكم، بضعة آلاف من جنود الإنجليز شبه جزيرة الهند، وهى مئات الملايين، مئات من السنين. وهيمنت السياسة الاستعمارية على مصائر شعب الصين - يأجوج ومأجوج.

ولو كان الأمر كذلك لما سيطرت هولندا - في أقصى شمال الأرض - على مجموعة جزر أندونيسيا وأهلها كالنمل عدداً، وأهل هولندا يستولى كل واحد منهم على جزيرة

يحكمها كيف يشاء.

ولو مضينا نضرب الأمثال لما وسعنا المجال شرحاً وتفصيلاً.

فهو الكيف إذن.. أعنى النوعية ـ بالتعبير الحديث.

ومع الكيف: العدة. وقد منحنا الله أرضاً واسعة ملأ جنوبها بالمعادن، ومهد شمالها للحرث والزرع، ومدَّ ساحلها إلى حيث يرتدُّ الطرف، وصبَّ فى أعماقها الذهب الأسود صباً، ونوَّع مناخها، وطيَّب هواءها، ووضع فيها كل الخيرات.

ونحن مجتمع متناسق متآلف، صيغ من جبلة واحدة قطعة واحدة، لا تنافر فيها ولا اختلاف. تربطه أواصر القربى، وتجمعه علاقات النسب والأصل واللغة والدين والطباع والعادات.

ونحن من إفريقيا فى القلب.. تتَّصل حدودنا بها، وتمتزج دماؤنا ودماؤها. وفى الوطن العربى حلقة وصل بين جناحى المشرق والمغرب. ونقرب من أوروبا حتى لنراها من شواطئنا كل صباح.

نحن هنا نملك قوة الاقتصاد، ونسيطر على مواردنا، ونسخّرها كيف نشاء. ونحن نبنى بالمال قوة العلم، ونزداد كل يوم معرفة بخبايا التقنية الحديثة، ونستخدمها فى حياتنا العامَّة والخاصة. نرتبط بماضينا وبشريعة الكتاب العزيز، ونستمسك بأصالتنا وتضرب جذورنا فى الأعماق، ونتطلَّع إلى آفاق العلم الحديث الرحبة نأخذ بأسبابه دون رهبة ولا تخوّف. لسنا منغلقين ولا متزمِّتين، كما أننا غير متنصلين من تراثنا ولا متبرئين. فماذا يمكن أن يقال؟

مليونان!..

فليكن..

لكنَّهم ليسوا طحالب نمت حول آبار النفط ـ كما قالت الأقلام الكاذبة. وليسوا حشداً من الرعاة الرحل كما قالت الأفواه المتغرِّبة ذات يوم.

على هذه الأرض الليبية درجت الإنسانيـة أوَّل ما درجت. ونظرة واحدة إلى آثار فزان وما انتصب شمال هذه الأرض فى القديم تخرس الألسنة.

وإسهام علمائنا وشيوخنا بعد الفتح فى علوم الإسلام

الكريمة واللغة العربية الشريفة لا ينكره إلاَّ جاحد. وهو إن طمر بفعل عوامل كثيرة فسوف يظهر ليقول: ها أنذا..

أمَّا الموت فى سبيل الله والوطن والعروبة فإنَّه لا يحتاج إلى تدليل وتوضيح. ألا يكفى ثلاثة الأرباع مليون على مدى عشرين عاماً من الزمان؟ هل نتحدَّث عن الأساطيل الليبية التى أرغمت أمريكا على الانحناء، وأجبرت أوروبا على دفع الجزية كل عام؟ هل نتحدَّث عن قوافل شهدائنا فى فلسطين فى الأربعينات وبعد الأربعينات؟ هل نورد ذكر معركة الجزائر العظيمة.؟

ومن هذه الأرض حكم الملوك روما، واعتلوا عرش الفراعين وأتوا بالمعجزات.

ومنها كان أوَّل اتصال بأوروبا بعد نهضتها، على مستوى الحرب والسياسة والفكر والعلم والثقافة

وهى الآن تبنى من أجل المستقبل. تبنى العدَّة: فى مدارسها، وجامعاتها، ومصانعها، ومزارعها، وقوَّتها العسكرية الضاربة المدافعة.

مليونان!!!

فليكن . .

لكنَّهم مليونان مسلَّحون بالعزيمة والإيمان، والمعرفة والعلم . .

هم ـ كيفاً ـ مائة مليون . . وأكثر قليلاً! . .

فاصنع ماشئت

ما الفرق بين التأثر والسرقة فى العمل الفكرى أو الأدبى؟

إنه خيط رقيق جدًّا لا يكاد يرى. غير أنَّ هذا الخيط ـ مهما بلغت دقَّته ـ هو الذى يحدِّد الفرق بوضوح كامل بين الأمرين.

فالتأثّر ـ فيما نرى ـ هو أن يُغمر الكاتب بفكر فردٍ ما، أو جماعة ما، حتى يصير هو المعبِّر عنها من خلال عمله بشرط أن يختلف أسلوب التعبير حتى تبرز شخصية الكاتب ذاته، وإن بدأ متأثِّراً بفكر آخر. وهذه مسألة طبيعية لا غبار عليها، بل لا مناص منها، فما دام الكاتب قرأ لسواه فهو لا ريب يتأثَّر بما يقرأ ولا يمكنه الخلاص بحال من الأحوال مهما بذل من جهد.

أمَّا السرقة فهى تكون بطريقتين: أحدهما أن ينقل نتاج غيره نقلاً حرفياً ـ سواء كان هذا النتاج فى لغته الأصلية أو لغة أجنبية عنه.. والآخر أن ينقل الفكرة ذاتها محاولاً أن يضفى عليها بعض التغيير والتحوير لكى تبدو كأنَّما هى من بنات أفكاره ومن نتاجه هو دون أن يشير إلى المصدر الذى استقى منه موهماً القارىء بأنَّ ما يقرأ جاء نتيجة جهده الفردى وبحثه الخاص وتأمّله الذاتى، وإنَّ الفضل يعود إليه وحده فى هذا الإبداع.

ذكَّرنى بهذا الأمر اسمان يتردَّدان كثيراً على الأفواه وفى الأسماع، ولهما من القرَّاء العدد الأوفر فى عالمنا العربى ـ رغم كل شىء ـ أمَّا أوَّلهما فهو أنيس منصور، وأمَّا ثانيهما فهو مصطفى محمود.

وللأوَّل شهرته الكبيرة، وأشهر ما عرف عنه غرامه بعجائب الدنيا وغرائبها. وقد اهتمَّ كل الاهتمام بأن يتحف قارئه بما رأى فى أثناء سياحاته من هذه العجائب والغرائب، جمعها فى رحلات تذكِّرنا بكتب الأوائل ورحلات سندباد. بدءاً من جبل سرنديب وانتهاء بقلعة الدالاى لاما، ومروراً بجزر الأشجار التى تنبت نساء تغنى لعابرى السبيل!.

وأنيس منصور - فى الحق - كاتب ظريف طَرِيف لطيف، يمكنه أن يأخذ بيد - أو بعين - أى قارىء عصى ويقوده إلى حيث يريد دون كبير عناء. وهو فى هذا موفَّق كل التوفيق.. لا جدال. فمن ذا الذى يقاوم الاطلاع على ما يحكيه هذا القاص الماهر من مدهشات تأخذ بالألباب؟ أو من ذا الذى يستطيع كبح جماح فضوله لمعرفة أسرار العاشقين والعاشقات وطرق الحب المختلفة ودنيا الغرام الملتهبة بالعواطف والأحاسيس؟ أمَّا الشعب والأمَّة، والسياسة ومصاعبها، وقضايا الجماهير المتعبة المنهكة.. فتلك مسائل هو برىء منها كل البراءة.

لكن ما العمل عندما لا يجد أنيس منصور شيئاً يبهر به قرَّاءه؟ كيف يمكنه أن يجذب هؤلاء القرَّاء إليه ويشدُّهم بالمخدِّر اللطيف؟

هنا نرجع إلى موضوعنا. وهنا نجد صاحبنا أمهر ما يكون أيضاً. فقد وقع بيدى منذ مدَّة كتاب له عنوانه (الذين هبطوا من السماء). وهو عنوان مغرٍ كما ترى، وفيه يقصُّ الكاتب حكايا تبلغ الغاية فى الغرابة عن أصل الإنسان فى هذه الأرض - وخلاصته أنَّ هذا الكوكب ليس

سوى حقل تجارب لكائنات أخرى جاءت من الكواكب البعيدة لتنشىء حضارة جديدة، فتبنى الأهرام وتترك آثارها فى الهند والصين والمكسيك وجزيرة أطلنتس أيضاً. ولسنا هنا فى سبيل مناقشة الفكرة ذاتها ورفضها أو قبولها، ولكنَّنا نبحث فى أصل الفكرة ومنبعها.

ونحن قد نقبل النظرية، وقد نرفضها. لكن ما لا نقبله أن يسطو الأخ أنيس منصور سطواً على عمل كاتب آخر، وينقله حرفاً بحرف، بل حتى الصور المثبتة فى الكتاب بعينها، ثم ينسب هذا كله إلى نفسه.. دون حياء ولا خجل!

إنَّ نظرية مثل هذه التى ذكرت بدأت تخرج فى الآونة الأخيرة فى البلاد الأمريكية والأوروبية من عالم الخيال العلمى (Science Fiction) إلى حيز النظريات العلمية. وكثير من العلماء والباحثين مهتم بها كل الاهتمام. وما إن قرأت (الذين هبطوا من السماء) حتى فوجئت بأننى قرأت هذا الكلام من قبل.. فى لغة أخرى! ثم تذكَّرت المؤلف السويسري الأصل «أريك فون دنكن» وكتابه المعروف (عربات الآلهة) وعدت إليه أتصفَّحه من جديد، فإذا

الحديث هو الحديث، والفكرة هى الفكرة مع بعض (التحابيش) فى كتاب أخينا فى الله.. أنيس منصور!

ولقد ألَّف (أريك) هذا مؤلفات أخرى بيعت منها ملايين النسخ عن (العودة إلى الكواكب) و (ذهب الأرباب) ثم (آلهة من الفضاء الخارجى). وهى كلها تدور فى نفس النطاق. لكنَّ المؤلف السويسرى كان أميناً وجاداً فى عمله. فهو قطع ما يزيد عن مئة وثلاثين ألف ميل سفراً للبحث عمَّا يؤيد نظريته ما بين القارات الخمس، وأثبت فى نهاية كل مؤلف له قائمة طويلة بالمراجع والمصادر التى استعان بها، ومنها بعض المراجع العربية. أمَّا صاحبنا فلم يكلِّف نفسه عناء سوى الترجمة عن الألمانية أو الإنجليزية، ثم نشرها فى الصحف وجمعها من بعد ذلك فى كتاب يحمل اسمه دون ذكر من أخذ عنه ونقل.

إنَّ هذا لا يسمَّى تأثّراً.. إنَّه السرقة بعينها. هكذا.. عينى عينك!

فلنترك الأخ أنيس ولنلتفت إلى الأخ مصطفى محمود... الذى لا أدرى من أى جامعة حصل على لقب

(الدكتوراه) ليسبق به اسمه. وهذه قضية أخرى قد نعالجها ذات يوم. فماذا يفعل الأخ مصطفى فى برنامجه المرئى سوى عرض بعض أشرطة مستعارة من التلفزة الفرنسية ثم الهتاف: الله!! يا سلام.. شوفوا.. شوفوا.. الله!! يا سلام.. يا سلام! وهذه أيضاً قضية أخرى قد نعالجها ذات يوم كذلك.

منذ سنوات قرَّرت لجنة ما فى القاهرة أن تحيِّى الأخ مصطفى محمود وتبييه.. فشهدت أنَّ كتابه المسمَّى (رجل تحت الصفر) عمل إبداعى ممتاز جدير بأنَّ يعطى جائزة الدولة التشجيعية.. هكذا مرَّة واحدة! وإذا كان من محاسن أنيس منصور أنَّه يقرأ ويترجم وينشر، فمن محاسن الأخ مصطفى أنَّه يحب التردُّد على دور الخيالة. وهو قطعاً شاهد شريطاً بعنوان (الذبابة) أثار ضجة يوم عرض وهو يحكى قصة عالم شاب يحاول اختزال الزمن والمسافة - أو الزمان والمكان - بجهاز يدخله ثم يضغط زراً يحوِّله إلى موجات كهربائية ضوئية تنتقل بها ذرات جسمه إلى جهاز آخر فى مكان آخر معدٍّ لاستقبالها وتحويلها إلى جسم كامل كما كان.

هذه هى الفكرة ذاتها التى نسج حولها مصطفى محمود

قصته. وهى قصة تدخل فى عالم الخيال العلمى بأضيق الحدود. ثمَّ طبع ونشر.. ونال الجائزة على عمله (الإبداعى) العظيم. فماذا نسمِّى ما فعل يا ترى؟ إنَّها المرَّة الأولى - فيما أعلم - التى يكافأ فيها السارق بجائزة تشجِّعه على إعادة الكرة مرات ومرات!

هذان مثلان تعمَّدت اختيارهما ليس لأهميتهما، وإنَّما إشارة إلى ظاهرة خطيرة تتمثَّل فى استغفال القرَّاء بالسطو على إبداع الآخرين وتقديمه على أساس أنَّه عمل خاص يشتهر به صاحبه ويثاب عليه.

والأمر، من بعد هذا، فى العمل الفكرى أمران: إمَّا تأثُّر يعمق أو يخف ويظهر أو يتلاشى حتى لا يكاد يتميَّز، وهو حلال بحسب أحكام العقل والمنطق السليم. وإمَّا سرقة قد يستحى صاحبها فيحاول إخفاء آثارها بقدر ما يستطيع، وقد لا يستحى فيتباهى بفعلته ولا يحاول إخفاء الأثر معتمداً على جهل القارىء بمصدر ما كتب. وهذا حرام بحسب جميع أسس الفكر والعلم والأدب.

وقد قيل: إن لم تستح فاصنع ما شئت.

هل بعد هذا القول كلام؟!

ماالذى حدث ؟

هل اللغة وسيلة أو هى غاية فى حد ذاتها؟

سؤال قد يصلح موضوع مناظرة بين طلبة إحدى المدارس الثانوية يبرز فيه كل فريق حججه ويلقى ببراهينه تدريباً لهم فى مجال المحاجة وتمريناً لألسنتهم كى تنطلق من معاقلها. غير أنَّ الإجابة - فى النهاية - هى أنَّ اللغة وسيلة..

اللغة أداة تعبير الإنسان عن ما يجول فى خاطره من مشاعر وأحاسيس مهما تباينت. اصطلح عليها الناس حتى يتمَّ الاتصال البشرى ويتحقَّق العمران وهى وسيلة التعبير عن الحياة الماديَّة البسيطة أو المعقَّدة على حد سواء. هكذا بدأت.. ثم تطورت لتشمل جوانب غير محسوسة كان الإنسان أقدر من غيره من مخلوقات الأرض على الإفصاح عنها برموز

وأصوات أسماها لغة، اختلفت باختلاف الشعوب والأمم وإن ظلَّت رابطة ما تربطها إشارة إلى وحدة نشأتها الأولى.

هذا يدخل فى باب المصلحة البشرية، أو المنافع الإنسانية اليومية. ثم ولجت باباً آخر هو باب المتعة أو الاستمتاع. واللغة هنا أيضاً وسيلة فنحن نستمتع بالشعر يُقرأ ونطرب لفكاهة أو نادرة، وننتشى بمشهد تمثيلى أو مسرحية، ونصفِّق لخطيب ممتاز. وقد يكون فى هذه الأمور كلِّها فائدة ملموسة، وقد لا يتميَّز بعضها بغير جمال اللغة وحسن التعبير طريقاً إلى الإمتاع الذهنى المطلوب.

غير أنَّ اختلاف مواطن البشر أدَّى إلى تغاير اللغات، تفرُّعاً عن أصول كبرى صارت إلى آلاف الألسن واللهجات. وأصبحت هذه الألسن علامات مميزة للشعوب والأمم، وباتت كل أمَّة معتزَّة بلسانها متَّخذة إياه رمزاً لها، تحفظه من الاعوجاج بعد أن استقام عوده وصلب وتحميه من عاديات الزمن، وتصونه من الانحراف والخلل. وليس ثمَّة أمَّة متمدينة فى الوجود إلاَّ وهى ترى لغتَها أجمل اللغات وتحسب لسانها أقوم الألسن. ومن هنا انبثقت علوم النحو والصرف وما نتج عنها من فنون فرعيَّة غايتها الأولى

والأخيرة تعليم الأجيال الجديدة فى الأمَّة قواعد لغتها وأصول نطقها ومرامى ألفاظها ومعانى تعبيراتها.

واللغة العربية هى إحدى كبريات لغات العالم. وهذا أمر لا أبيِّنه تعصُّباً، إذ هو حقيقة مسلَّمة لدى الدارسين والعلماء فى أركان الدنيا الأربعة. كان هذا بحكم تطوُّرها منذ أقدم العصور. وتكاملها بعامل انتشار الإسلام وانتشار الحضارة العربية فيما بعد. ثمَّ كان لارتباطها الأوثق بالقرآن، وبفضل الرجال العظماء الذين كرَّسوا حياتهم لتأصيل قواعدها وضبط مبادئها وترتيب نحوها وصرفها وتنظيم اصطلاحها، خوفاً عليها من الفساد وخشية أن تلتوى بها الألسنة الجاهلة أو الأشداق الأعجمية.

وقد استمرَّ الزمان قروناً متطاولة يضيف لهذه اللغة جديداً وتضيف هى إليه. تنمو وتزدهر وتكبر كالشجرة الباسقة، فترسل ظلالها الوارفة على ساحات شاسعة من رقعة الأرض وتغطى بقاعاً تمتد آلاف الأميال وتتغلَّب على لغات سابقة وتجعلها نسياً منسياً. ثم توالت عصور الظلمة وكان طبيعياً أن تتأثَّر الشجرة التى افتقدت النور، فتذوى أغصانها وتيبس فروعها رغم أنَّ الجذور لا تزال ضاربة فى

الأعماق تنتظر البعث إلى الحياة من جديد.

ونحن الآن نعيش فترة البعث هذه.. بالرَّغم من كل شيء. نحن الآن في فترة ما يسميّه بعض أساتذتنا «الهبَّة التراجعية» وهو يعني الصحوة والالتفات. إدراك الواقع والنظر إلى الماضي للانطلاق في المستقبل. ولغتنا هي الأساس الأوَّل الذي نبني عليه صرح مستقبلنا. إذ أنَّ اللغة عنوان القومية والاعتزاز بها يحمل معنى الاعتزاز بالوطن والاهتمام بها يظل وسيلة الاهتمام ببناء المواطن الواعي المتيقِّظ.

فما الذي حدث؟

ما حدث أمر بالغ الخطر رغم أنَّ الكثيرين لا يكادون ينتبهون إليه. وهو في ظنِّي مفتاح المسألة برمَّتها، وأرى أنَّ لا مناص من توضيحه.

كنت أصحِّح بعض أوراق طلبة إحدى كليَّات الجامعة هذا العام. ولست أدري كيف أعبِّر عن (فجيعتي) حين قرأت ما كتبوا. هل أقول: (الهلع)؟ لعلَّه (الرعب) الذي انتابني. أو هو شيء آخر.. مزيج من القلق والصدمة

والدهشة والتعجُّب. كيف تنحدر لغة طلبة الجامعة إلى هذا الدرك؟ كيف تلتوى القواعد وتنعكس بل تتلاشى وتتناثر حتى لا تكاد تعى جملة واحدة؟ كيف تختلط التعبيرات البديهية الأساسية فلا يدرى صاحبها ما يقول؟ بل كيف اجتاز بعضهم امتحانات الإعدادية والثانوية ووصلوا إلى مراحل متقدِّمة فى دراستهم الجامعية وهم لا يحسنون مبادىء الإملاء فما بالك بقواعد اللغة؟ هل قلت (يحسنون)؟ إنَّهم لا يعرفونها مجرد المعرفة... كارثة. هكذا كنت أحدِّث نفسى وأنا أحاول ضبطها حتى لا تؤثِّر فى وضع الدرجة المطلوب وضعها ولا أظلم أحداً. وأعترف أنَّنى حاولت أن أبعد مقياس اللغة فى التصحيح، فهم جميعاً يستوون. والحق أنَّهم بذلوا الجهد فى الفهم، وبذلوا الجهد فى التعبير وقد جاءوا بأفضل ما لديهم. لكن ما لديهم ـ فى باب اللغة ـ كان أضأل من أن يمكِّنهم من التعبير السليم الصحيح.

وأنا أسمح لنفسى بالحديث عن طلبة الجامعة، وفى كلية تعدُّهم لتعليم الأجيال الجديدة بالذات، لأنَّ الجامعة فى هذا المجتمع الصغير هى خير مقياس يعتمد عليه الحكم

فى هذا المجال. فإذا كانت خلاصة المجتمع بهذا المستوى من الجهل اللغوى فإنَّها فى الحق مصيبة.. بل هى أعظم المصائب..

ما السبب يا ترى فى هذه المحنة؟

أووه.. هل أعدِّد لك الأسباب؟ إنَّك تعرفها بالتأكيد، ما دمت مهتمًّا بقراءة هذا المقال، ووصلت معى إلى هذا الحد!

فلنلق اللوم على كتب القواعد فى مراحل التعليم الأولى مثلما هى العادة دائماً.. ومبلغ علمى أنَّ أمانة التعليم والتربية مهتمَّة أشد الاهتمام بتطوير هذه الكتب ولعلَّ النتيجة خير.. إن شاء الله..

لكنَّ رأيى أن تعلُّم الطلاب قواعد اللغة بهذه الطريقة ـ أعنى فى كتب منفصلة مقرَّرة ـ هو السبب الأكبر فى ما وصلنا إليه.. مهما طوَّرنا وأصلحنا وعدلنا وبدَّلنا. إنَّ تقديم قواعد اللغة منفصلة عن بقية الكتب فى المواد الأخرى جعل الطلاَّب ينظرون إليها فى خوف أدَّى إلى

تحاشيها ثمَّ أوصل إلى تجنُّب ما يمتُّ للقواعد بصلة.. حتى صارت القواعد غولاً رهيباً ينفر منه كل أحد ويبتعد عن طريقه ما استطاع.

هذه واحدة. أمَّا الأخرى فهى ما يمكن تسميته باسم «الإزدواجيَّة اللغوية» وهى عامَّة فى البلاد العربية لا تقتصر على بلادنا فحسب.. فنحن نتكلَّم ـ فى الواقع ـ لغتين: إحداهما فى حياتنا اليومية على اختلاف مظاهرها.. وهى ما يسمَّى بالعامِّية أو الدارجة. والأخرى نسمعها فى الإذاعة ونقرأها فى الصحف وننصت إليها فى المحاضرات والخطب. وهذه مشكلة مستعصية على الحل الآن. لكن لا بد لها من حل فى المستقبل بأى سبيل.

وماذا عن الحاضر؟

إن كنَّا جادين فى إصلاح ألسنتنا فلا بدَّ من خطوات سريعة فى البداية. أوَّلها: إعادة النظر فى طرق تدريس قواعد اللغة بحيث تصبح شيئاً عاديّاً يتعلَّمه الطالب بسهولة ويسر دون خوف منها ولا وجل. وثانيهما: التشديد على مدرِّسى مختلف المراحل باستعمال اللغة الفصحى فى

شرح المواد المقرَّرة حتى يتمثَّل بهم طلابهم وتستقيم ألسنتهم منذ الصغر. وثالثها: أن لا يقدَّم فى الإذاعة شيء إلاَّ بالفصحى ـ وبخاصة فى البرامج التمثيلية والأحاديث والمقابلات.

ورابعها: أن يوضع فى الاعتبار ـ عند تصحيح أوراق طلبة الجامعة بالذات ـ نقاء اللغة وسلامة قواعدها، مهما اختلفت كلِّياتهم. ولست بهذا أكلِّفهم ما لا طاقة لهم به.. فهذه القواعد لا تتجاوز بحال عشراً يمكن حفظها فى يوم واحد وتطبيقها بعد ذلك فى كل شيء.

إنَّ جامعة السوربون ـ مثلاً ـ تنقص درجة للطالب عن كل خطأ إملائى أو نحوى فى اللغة الفرنسية، أيَّاً كان العلم الذى يمتحن فيه. وقد يرسب الطالب ـ لغوياً ـ رغم صحة إجابته التامة.

هل نستطيع أن نتَّخذ من السوربون مثلاً؟!

لم لا تفهم ما يقال ؟

لعلَّه أبو تمَّام ذاك الذى وقف ينشد شعـراً فى مجلس الخليفة، وكان مغرباً أشد الإغراب، حتى إذا أكمل إنشاده سأله أحد الحاضرين:

ـ لم لا تقول ما يفهم يا أخا العرب؟

وكان جواب أبى تمَّام:

ـ ولم لا تفهم أنت ما يقال؟

وقد اعتبر بعض النقَّاد هذا الجواب ردَّاً مفحماً للسائل، وحسبه البعض تخلُّصاً ذكيَّاً من الشاعر. وقد يكون موقف أبى تمَّام سليماً متمشياً مع الوضع الثقافى العام يومذاك، فلعلَّ السائل كان قاصر الفهم حقّاً فوجد عسراً فى إدراك مراد الشاعر ومراميه ومتابعة ألفاظه ومعانيه.

غير أنَّ السؤال ذاته ينبغى أن يوجَّه اليوم إلى بعض شعرائنا المحدثين:

- «لم لا تقولون ما يفهم؟».

وليس لهم أن يتمسَّكوا بجواب أبى تمَّام، فالحق أنَّ ما «يقولونه» لا يمكن أن يدرك بأية وسيلة من وسائل الإدراك، ولا يستطاع تتبُّعه بأيَّة طريقة من طرق التتبُّع والتقصِّى. فلا اللغة واضحة الألفاظ، ولا الجمل جليَّة الصلة بعضها بالبعض.. ولا التركيب بيِّن التناسق. فإن كان «الرمز» هو الذى يقصدون فإنَّ للرمز شروطه وأصوله بحيث يؤدى غايته ويصل إلى المطلوب منه. أمَّا أذا كان «الاستغلاق» هو البغية، رغبة فى أن يقال إنَّ فلاناً صعب الفهم أو بعيد المرمى أو ممعن فى رمزه، فهذه صفة بالغة السوء حقَّاً.

إننى أقرأ القصيدة لأحد هؤلاء من بدايتها إلى نهايتها فلا أجد خيطاً واحداً يربطها ولا فكرة واحدة تنتظمها، وإنَّما يعمد صاحبها إلى كلمات متنافرة يفرغها من مدلولاتها حين يجمع ما لا يصح جمعه من الألفاظ، ويظل يردِّد كلمات لا صلة بينها بحال من الأحوال. وأعذر الشاعر

طمعاً فى فكرة جديدة ناصعة وأملاً فى بارقة وحى هبط عليه من السماء، فلا أجد سوى الهبوط وحده دون وحى!

أعجب ما فى الأمر أنَّ شعراء الرمز الموغل هؤلاء يدَّعون أنَّهم يعبِّرون عن «قضايا الشعب» وآلامه وآماله ـ أو هى طموحاته كما يقولون ـ والأعجب منه أنَّ الشعب لا يعي ما يقولون، إن كان يقرأهم أصلاً. فكيف السبيل إلى الخلاص من هذا العذاب أيها القوم؟

إنَّ التعبير الفنِّى لا يمكن أن يقبل ـ فما بالك بأن يرسخ ويخلد ـ إلاَّ إذا كان جميلاً فى ذاته. وليس من الجمال فى شىء أن يلوى عنق الكلام العربى ويحوَّل إلى هذر باسم الرمز والرمزية وأنَّ تلوى معه أعناق القارئين.

هذا هو القرآن ـ أروع تعبير لغوى عرفته البشرية ـ وقد شمل قيم الحق والخير والجمال، وضمَّ أمور الدنيا والدين. ليس فيه كلمة واحدة مستغلقة. بل هو لسان عربي مبين. والإبانة أهم خصائص العمل الفنى، وإلاَّ انتهت الغاية منه. فإن كان الغرض مخاطبة الناس ـ أعنى الشعب ـ فالأفضل أن يبحث شعراؤنا عن وسيلة أخرى غير ما

يفعلون. أمَّا إن كان مجرَّد تعبير عن أزمات نفسية ذاتيَّة ومحاولة للتنفيس عن الكبت الموجع، فلم يسمح لهم بتعذيب الآخرين معهم؟!

ألا ما أحكم رسول الله ﷺ حين قال: «خاطبوا الناس على قدر عقولهم».

وأحسب أنَّ عقول الناس قد «طارت» من سوء ما يقرأون!

لماذا "ابن مقلة"؟

سعدت جداً بافتتاح معهد للخط العربي فى بلادنا. سعدت لا لجمال هذا الفن وارتباطه بحضارتنا فحسب، بل أملاً فى جيل يخرج منه يعلِّم الجيل الجديد كيف تستقيم حروفه حتى يمكن قراءة ما يكتب ـ إن كتب ـ بعد أن فاقت طلاسم خربشاته أعاجيب خط أستاذنا على مصطفى المصراتى ـ كان الله فى عون ناشرى كتبه المساكين!

* * *

غير أنى دهشت لاختيار اسم ابن مقلة له. وأعترف بجهلى الفاضح إذ لم أعرف من هو ابن مقلة هذا.. حتى أفادتنى ـ الأسبوع الثقافى ـ فى خبرها عن افتتاح المعهد بأنَّه كان خطَّاطاً ممتازاً، قطعت يده اليمنى فصار يكتب بيده اليسرى. وهذا ـ فى ظنِّى ـ أمر طبيعى. ولعلَّه ارتكب ما تنقطع به يمناه، ممَّا يدخل فى باب آخر، فبمَ يكتب إذن إلاَّ

بيسراه؟! وقالت الأسبوع الثقافى ـ باركها الله ـ إنَّه كتب خطأ أجمل. ولعلَّه كان أعسر. وقالت: إنَّه عاش فى القرن الرابع الهجرى.

جميل.

* * *

فلنقرأ ما كتبه الرحَّالة عن رجل تعس الحظ عاش فى هذه الطرابلس.. كان اسمه ابن الأجدابى. أبو إسحاق إبراهيم بن اسماعيل بن أحمد بن عبدالله الطرابلسى. قال أحمد بـن ناصر الدرعى فى (رحلته) عنه:

«وقبره معظَّم يكثر الناس من زيارته والدعاء عنده. وكان من أعلم أهل زمانه بجميع العلوم، كلاماً وفقهاً ونحواً ولغة وعروضاً ونظماً ونثراً. وله تواليف جليلة وأسئلة مفيدة فى الفقه وفى غيره.

ومن جملة تـواليفه كتـابه المتـداول المسمَّى (كفايـة المتحفظ)، وكتـابه فى العـروض. وناهيـك به حسنـاً وتهذيباً... وكتابه فى الرد على أبى حفص بن مكِّى فى (تثقيف اللسان) وكتابه فى شرح ما آخره ياء مشدَّدة من الأسماء وبين اعتلال هذه الياء.. وكتابة (المختصر فى علم

الأنساب) وله تأليف مختصر فى (الأنواء) على مذهب العرب ورسالته المعروفة برسالة (الأصول) وكان الفقيه أبو اسحاق أحول. وسبب تأليفه أنَّه حضر يوماً بطرابلس عند القاضى بها أبى محمد بن هانش الطرابلسى فحكم أبو محمد بحكم أخطأ فيه. فردَّ عليه الفقيه أبو إسحاق. فقال له: اسكت يا أحول! فما استدعيت ولا استفتيت. فألَّف تلك الرسالة»!

* * *

ويضيف ابن ناصر: «وكان ـ رحمه الله ـ من أحسن الناس خطاً. وأخبرت أن الأمير زكريا، رحمه الله، كان شديد البحث عن خطِّه. وسمع أنَّ كتاب (الفصيح) بيع بخطه بطرابلس فأبرد بريداً فى البحث عنه ووجَّهه به إليه. وإنَّه سمع أنَّ بها كتاب (أمثلة الغريب) لأبى الحسن الهنائى بخط الفقيه أبى إسحاق فى ملك بعض بنى النفاد من أعيان طرابلس، فوجَّه إليه فيها فوجَّه النفادى بها إليه. وملكت بخطه تأليفه الذى اختصر فيه كتاب (أنساب قريش).. وأخبرنى بعض الطلبة أنَّ خط أبى اسحاق باقٍ إلى الآن فى بعض جدران داره بطرابلس».

هذا شيء قليل جدًّا مما كتب عن ابن الأجدابى. ولا يهمُّنا هنا سوى ما ورد عن تفرُّده بخطه الجميل الذى يتتبَّع فى البلاد ويرسم على الجدران.

* * *

فإن قيل إنَّ ابن مقلة عربى، أفليس ابن الأجدابى عربياً أيضاً؟.

أم أنَّ ذنبه أنَّه جاء من أجدابيا، وعاش فى طرابلس - ولم يخرج منها قط وإنَّما تلقَّى العلم كما كان يقول: من بابى هوارة وزناتة؟

هذه مصيبة ابن الأجدابى.. ومصيبتنا. ترى لو بعث حياً ألا يكتب رسالة فى حولنا نحن، أيها القوم، يعيب علينا نسيانه وهو عند أرنبة الأنف؟!

المنسيون

أشهد أنَّ فى عنقى ديناً لذلك القارىء العزيز الذى أعاد لى الثقة بأنَّه لا يزال فى هذا البلد قراء. فأثبت بهذا أنَّ الكتَّاب هم المعرَّضون للانقراض أولاً ثم يتبعهم القرَّاء. وكنت أظنُّ أنَّ القرَّاء أسبق فى الانقراض ثم يتبعهم الكتَّاب، بعد أن (يخربشوا) ما شاء لهم الله وتحمَّلت أعصابهم ومكَّنتهم من الصياح فى الوديان والنفخ فى الرماد!

فبارك الله فيه وأكثر من أمثاله.. إنَّه هو السميع المجيب!

وماذا؟ إنَّه لم يكتف بقراءة ما كتبت يوماً فى هذا الباب عن ظلم ذوى القربى لابن الأجدابى اللواتى الطرابلسى، بل شمَّر عن ساعد الجد ونقَّب وبحث ودرس وفحص حتى

عثر فى أسفار القدماء عن نبذة وافية تترجم لابن مقلة المفضال وتجلو الصدأ عن حياته وأعماله وفنه وإبداعه.

ثم ماذا؟ لقد أخذته الحماسة لابن مقلة الغالى فبعث إلى (الأسبوع الثقافى) محتجّاً على احتجاجى مورداً ما يناسب المقام من درر الشعر العربى من قبل:

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته
والذنب للطرف لا للنجم فى الصغر

فلنقم بواجب الشكر للقارىء العزيز مصطفى عمران رابعة لإعادة الثقة أوّلاً، واهتمامه ثانياً، وغيرته ثالثاً، ولما أمدَّنا به من علم جهلناه عن ابن مقلة هذا رابعاً.. ثم نقول:

والله ما كانت الأبصار قاصرة
عن رؤية النجم فى محلولك السحر
لكنَّه البدر قد غطَّى ببهرته
وهل يرى النجم فى ضوء من القمر؟

إن كنت لا تدرك المرمى وغايته
فاسأل جهينة قد يأتيك بالخبر

ليس ابن مقلة إن قيست محاسنه
بابن الجدابى إلاَّ الرمل فى الدرر
فابن الجدابى قد ذاعت مفاخره
فى البر والبحر، بين البدو والحضر
إن كان فى نعته (جدب) فإنَّ له
من علمه (الجذب) غطَّى سالف العصر
هو اللواتى.. كم غنى الزمان به
وكم حدا العيس والركبان فى سفر
كم ردَّدت ذكره أمس طرابلس
وكم روى القوم عنه طيب الأثر
يكفيه يكفيه ما أبقت أنامله
على الرقائق أو خطَّت على الجدر
يكفيه ما أبقى الزمان له
مخلَّد الذكر يرضى كل ذى نظر
(زامر الحى) لا تجدى أصابعه
أن يستثير من الأسماع ذا وطر
ما بالنا اليوم ننسى كل مكرمة
لصق الجدار ونمضى خافضى البصر

كـأنّنـا لا نـرى إلاّ بـأقفيـة
أعجـوبة الـدهـر ـ تعبيـراً لمعتبـر
كـأنّنـا النخلة العـوجـاء بـاسقـة
وخـارج الدار تلقى جيـد الثمر
نمـر (مرّ سحـاب) عابـر، ولقد
يـمى السحاب فيمسى هاطل المطر
أليس فى القوم من تذكو حماسته
فيشعل النار من لمـاحة الشـرر؟
وينصف الميْت من حى يشـابهـه
قد عيل صبرى . . وإنى غير مصطبر!

إنّ المسألة ـ أيها القارىء العزيز ـ لا تكمن فى الخلاف حول من الأحق بإطلاق اسمه على معهد الخط الذى أنشىء: أهو ابن الأجدابى أم ابن مقلة؟ إنها تكمن ـ ببساطة ـ فى كيف نخلِّد أبناء هذا البلد ونحفظ ذكراهم للأجيال ونعرفها أنّها ليست (مقطوعة من شجرة). كيف ينشأ ابنى وابنك غير شاعرين بالنقص من هذه الصحراء المجدبة كما هو التصوُّر المعروف المتوارث المغروس فى الأذهان.

هنا يبدأ الحديث، وهنا ندرك الأبعاد الحقيقية للسنة الحميدة فى إطلاق أسماء العلماء والمجاهدين والمجدِّين والمبدعين والشعراء والكتَّاب والفقهاء ـ من أبناء هذا البلد ومن سواه ـ على المعاهد والمدارس ومرابع الثقافة والمنتديات ومراكز المعرفة والفكر، حتى لا تندثر ذكراهم وتنسى أسماؤهم ويجهل جهادهم و(بلاؤهم) فى أى سبيل.

لكننا فى بلد ـ ونحمد الله ـ يجد فيها كل امرىء تقديره واحترامه وتبجيله وإكباره، حيّاً أو ميتاً، إلَّا أبناؤه، رغم أنَّ الأقربين أولى بالمعروف. ونحن نجد الشعوب الأخرى تجدّ فى البحث عن تراثها وتشغل الأذهان بحوادث وأحداث لا ترقى بحال إلى ما يزخر به تاريخ هذا البلد، ثم نتهاون نحن فى تاريخنا ونتناسى شخصيات ماضينا وحاضرنا ونتعلَّق بالأذيال.. كأنَّنا الأيتام على مائدة اللئام.. فإن قال أحد كلمة حق توجَّهت إليه أصابع الاتهام وتشنَّجت الأيدى تتهيأ لخنقه والإجهاز عليه.

انظر إلى الشوارع مثلاً: من هو (برهان الدين) و (الأموى) ولست أدرى من من الأسماء المجهولة إلَّا أن يتطوَّع قارىء عزيز بمراجعة (وفيات الأعيان) و (فوات

الوفيات) ليقدِّم لنا (فذلكة) تاريخية عن هذا الاسم أو ذاك.. ورغم هذا نجدها على لوحات الشوارع والميادين والمعاهد لامعة مشعَّة بينما يتوارى مثلاً اسم عبد الرحمن التاجورى - عالم الفلك والهيئة المجدّ الذى لم يسمع به أساتذة وطلاَّب كليَّة الهندسة فيما يبدو ولم يسمّ مدرَّج باسمه.

أين عبد السلام بن عبد الغالب المصراتى - ذلك الفقيه الجليل الذى أخذ الخليل بن اسحاق عنه ونقل من (وجيزه) فصار أشهر منه؟

ماذا عن عبدالله الخروبى - العالم المتصوِّف سفير ليبيا يوماً من الأيام بين الجزائر والمغرب لفضِّ النزاع والخلاف حتى مات فى سفارته تلك، وهو يحاور العلماء والسياسيين على حد سواء، ودفن بالجزائر؟

وماذا عن زروق وتلاميذه وأتباعه ممَّن يعدُّون بالعشرات من هذا الوطن وخارجه؟

ألا يستحق نظرة من أهل النظر؟

وأين ذكر أبى القاسم الرمَّاح - الشارح الصوفى والمؤلف

العسكرى بما كتب فى فن السلاح واستعمال السيف والرمح وأدوات الحرب الأخرى في أيّامه؟ وابن أبى الدنيا الذى ملأ الدنيا علماً وحكمة وعظات، و ابن مطروح العالم الأديب شيخ طرابلس ووالِيها المحارب الصلب والمفاوض الماهر، الذى انتهى به المطاف ليقضى أيّامه الأخيرة غير بعيد من الإسكندرية فسميت مدينة كاملة باسمه - هى مرسى مطروح - وضنّ أهله عليه بلوحة فى زقاق؟

وبعض الناس يجعل من رفاعة رافع الطهطاوى أوّل مثقّف اتصل بالحضارة الغربية وعايشها، وألِّفت فى هذا المجلدات وكتبت الرسائل، وكان يعيش بين ظهرانينا رجل تعس آخر يدعى حسُّونة الدغيس هو- باعتراف الدارسين - السابق الاتصال سياسة وثقافة وترجمة ونقلاً . . غير أنَّ (طياح سعده) جعله من أهل طرابلس ولم يجعله حظُّه من سواها.

وأظلُّ دهراً أتلو عليك الأسماء وأنقل عن المصادر وأعرّف بمن أذكر. وكلها أسماء كريمة لرجال كرام يشرِّف أى معهد أن يطلق أحدها عليه. لكن (أهل الذكر) عن ذكرهم صامتون كأنَّ هذه الأرض عقمت فنضطر للبحث

عن أمثال (ابن مقلة) و (ابن بلغة) و (ابن شلاكة) فى بطون الأسفار، ليشبَّ النشء خجلاً يتوارى حياء من وطنه.. هذه الصحراء!

ذلك كلُّه ينصرف إلى الماضى. أمَّا عن الحاضر فإنَّ القلب، وحقِّ الله، ليدمى.. ينحت أحدهم الصخر بأهدابه ويقدِّم كل ما عنده، ويفوق سواه عطاء.. ثم لا يجد مجرَّد الكلمة الطيِّبة من ذويه، ويبرز الكاتب أو الشاعر أو القاص وفى روحه ومضات تعد بالخير الكثير.. فلا يلقى سوى البسمة الساخرة أو النظرة الهازئة... فينطوى على نفسه ويضع رأسه الحزين تحت جناحه الكسير، ثمَّ يمضى يبحث عن لقمة العيش له ولعياله، ويتحوَّل إلى ورَّاق يجلب كتب الآخرين ليبيعها قومه المنكرين لجهاده الجاحدين لفضله، أو يفتتح مطعماً يقدِّم الشطائر والدجاج المشوى للكروش المنبعجة والأفواه النهمة بعد أن كان يقدِّم للعقول الأفكار وللقلوب المودَّة والحب. فإن هبط البلد دعىّ، أو جاءها شعرور، أو أتاها أفَّاق لا يملك من الثقافة والفكر شيئاً، وليس من صفاته إلاّ صفاقة الوجه وقوة الحنجرة وألفاظ منمَّقة وشعارات على الشفتين، كان الطبل له

والمزمار. وتصدَّر الموائد والمجالس ينظر إلى المنسيين من عل، ويخاطب القوم بحساب، ويأخذ ما شاء أن يأخذ ولا يعطى شيئاً، وهو يتسامق بعنقه كأنَّ ليس على هذه البسيطة إلاه.

هذا كلُّه ـ ولله المنّة على كل حال ـ لأنَّنا نتمتَّع بخصلةٍ جليلةٍ راسخةٍ فى أعماقنا، تسيطر على سلوكنا وأقوالنا. نحن ـ والشكر لله من قبل ومن بعد ـ نتمتَّع دون سوانا بإنكار عجيب للذَّات. وهى صفة حميدة إن كانت بمقدار لا يلحق حيفاً بنا وبأبنائنا تقترن بالتواضع الجميل فى الوقت المناسب وبالقدر المعقول. أمَّا أن تتحوَّل إلى (إماتة للذات) فإنها تصبح مرضاً خطيراً يصيب الأفراد كما يحيق بالجماعات، ويودى فى النهاية بالجميع. هو مرض يعالج بشىء يسمَّى (حقن الثقة) وبأنَّ لنفسك عليك حقّاً ولأهلك عليك حقّاً.

أمَّا إذا استفحل الداء وعضل، فويلٌ لموتى الذوات من المنسيين، وويل للمنسيين من موتى الذوات!!

والقياس مع الفارق !

كنت أسمع من قبل تعبير (الفردوس المفقود) حين يأتى حديث الأندلس فلا أعيه ولا أفهم معناه حتى إذا كنت فى غرناطة علمت أى فردوس مفقود هو فى الحق.

ذلك الصرح الشامخ الجميل الرفيع الجمال.. قصر الحمراء ردهاته، شرفاته، دهاليزه، قاعاته، ممرَّاته، أسقفه وجدرانه بل وأرضيته.. قطع تفنن الصانع فأبدع. لا تملُّ العين من النظر إليها ولا تشبع من التملِّى فى تلك النقوش والزخارف، ظلَّت تقاوم الفناء وتصمد فى وجه الزمان لتدلَّ على مجد العرب والمسلمين العظام.

ثم.. جنَّة العريف، سحر الطبيعة وإبداع الإنسان اجتمعا ليخلقا أروع ما ترى وأزهى ما تبصر، الجداول الرقراقة بالماء الصافى البارد العذب، والنافورات تكبر

وتصغر. تنبثق.. ترش الرذاذ فترطِّب الجو وتروى الظمآن. والأشجار السامقة المتطاولة تلتف حول سوقها نباتات مزهرة اختلفت ألوانها وتباينت أزاهيرها وورودها، ونسِّقت تنسيقاً عجيباً. ولا تسمع فيها.. إلَّا «سلاماً سلاماً» وأغاريد العصافير وأناشيد الطيور ترفُّ بأجنحتها من حولك كأنَّها مراوح الملائكة ترحِّب بك وتغنى لك أنت وحدك.

وتصعد القصبة.. القلعة الحارسة، ذهب جنودها ومضوا وبقيت هى أعلى بناء فى غرناطة كلِّها يشمخ برجها خالياً من ديدبانه، وتمضى فى طرقاتها بين صفوف الزهر وقد غطَّت جدرانها النباتات المتسلِّقة وشجيرات اللبلاب والسائحون والسائحات عشرات الآلاف يتمتَّعون بالماضى ويتمتَّعون بالحاضر.

«لا رحمك الله يا ابن الأحمر»! قلتها وأنا أقف فى شرفة قصره التى وقف فيها باكياً وهو يستعدّ للرحيل عن غرناطة بعد أن دخلها جند الإسبان وأمّه تقول له:

ابك مَثل النساء ملكاً عزيزاً.

لم تحافظ عليه مثل الرجال!

ومضى الزمان. طرد الإسبان العرب من الأندلس، وقتلوا. واضطهدوا وأحرقوا - فى غمرة الحميَّة الدينية المتعصِّبة - كل ما استطاعوا من آثار العرب وكتبهم وعلمهم وفنِّهم. غير أنَّ الكثير بقى وظلَّ. حتى إذا همد التعصب وراحت الفورة استرجع الفرنجة عقلهم الطائش وندموا على ما فعلوا وحاولوا إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

وهم الآن يبذلون الجهد فى المحافظة على تراث العرب، بل ويتفنَّنون فى إظهاره بالمظهر اللائق به - حبًّا له كتراث إنسانى رفيع، واستفادة منه فى السياحة الزاهرة فى تلك البلاد.

قارنت فى ذهنى بين وبين.. وزفرت زفرة أشدَّ حرارة من لهب أغسطس هذا الذى نحن فيه..

العلم والعمل

وأعود.. فأسمع الدعوة على مستوى دولى إلى استعادة آثارنا المنهوبة واسترجاع مخطوطاتنا وتراثنا فى متاحف العالم ومكتباته. وهى دعـوة حميدة وجب أن تلقى التـأييد والمساندة على المستوى المحلِّى والعربى، بل يجب أن تكون شغلنا الشاغل فى الأعوام القادمة.

والذين حظيوا بحضور مهرجان العالم الإسلامى الذى أقيم فى لندن منذ أربعة أشهر ورأوا ما عرض فيه أصيبوا بالدهشة.. نعم الدهشة.. للكنـوز المخبوءة التى ما كانوا يعرفون أنَّ العرب ملكوها ذات يوم، ولو علموا أنَّ ما عرض هو بعض البعض لصعقـوا انبهاراً واستغراباً. أمَّا الذين أتيحت لهم فرصة زيارة هذه المتاحف والمكتبات فقد تُوفى بعضهم كمدا ومنهم من ينتظر..

والحديث فى هذا الباب طويل ويمكن تلخيصه فى القول بأنَّ (العلم والعمل قرينان) وعلم لا يتبعه عمل ليس بنافع - كما كان يقول زروق رحمه الله.

ومن العلم أنَّ متحف برلين وحده يضم من الآثار والمؤلفات ما يفوق محتويات مكتبات الوطن العربى مجتمعة، وإنَّ فهرس مخطوطاته العربية وحدها يبلغ تسعة مجلَّدات ضخمة.

ومن **الحق** أنَّ الفرنجة - والمستشرقين بصفة خاصة - نظروا إلى التراث العربى والإسلامى باحترام وتقدير، وحافظوا عليه وحفظوه، وتجشَّموا الكثير من العناء وبذلوا الكثير من المال فى هذا السبيل. ونحن لا نناقش الدوافع هنا والأسباب، بل نعنى بالنتائج، فوجب تقديرهم لهذا الصنيع وشكرهم عليه، ثم طلب إعادة الأمانة إلى أهلها.

ومن **العلم** والحق أنَّ العرب كانوا السابقين للفضل، إذ حفظوا للأوروبيين تراث أجدادهم اليونان ونقلوه إليهم وسلَّموهم إياه عن طريق الأندلس وغير الأندلس، وديعة إنسانية كالشعلة المضيئة تنتقل من يد إلى يد على مسار

البشرية المديد فليس على الغرب إلَّا أن يرد الجميل.

ومن **العمل** عقدُ اتفاقيات بيننا وبين الدول المعنيَّة خاصة بهذا الأمر، إمَّا ثنائية أو جماعية، أو عن طريق منظّمات الأمم المتحدة المتخصِّصة، تنص بنودها على تسهيل مهمَّة التصوير أو الاسترجاع وتيسير الاطلاع على محتويات المكتبات الكبيرة الكثيرة ونقلها إلى موطنها بالصورة المناسبة.

ومن **العمل** رصد مبلغ واضح محدَّد لهذه الغاية ينفق فى سبيلها دون غيرها. يعينَّ دفعة واحدة ويقال: هذا لهذا.. وكفى!

ثم يأتى من بعد ذلك: المبنى المناسب، والرجال ذوو القدرة والدراية والمعرفة والكفاءة، والمدرَّبون لهذا الغرض النبيل.

ومئة ألف مرة قيل: لا يمكن بناء الإنسان العربى دون إعادته إلى أصوله الأولى. وهو لم يعرف هذه الأصول. أليس هذا من أبسط «الأصول»؟!

تحريك الجلاميد!

تجربتان فى مناسبتين مختلفتين مرَّتابى، تفصل بينهما عشر من السنوات، لكن مغزاهما واحد والنتيجة فيهما واحدة على كل حال.

كانت الأولى فى مدرَّج رفيق بكلية الآداب فى بنغازى. يومها زارت الكلية فرقة من شباب جامعة كولومبيا - فيما أذكر - كانت تطوف أرجاء الأرض وتعزف ألحاناً من الموسيقى الراقصة الجديدة. أعلن عن موعد الحفل الذى ستصدح فيه الأنغام، وغصَّ المدرَّج الكبير بشباب (الآداب) وشاباتها حتى فاض ووقف الكثيرون فى الممرات ينصتون. أخذ أعضاء الفرقة مواقعهم واتَّخذ السامعون مجالسهم، وأعطيت الإشارة. رنَّت الآلات الوترية وعلت دقات النحاس، وارتجَّت القاعة، ومضت الفرقة تعزف وتعزف، وتنوِّع من ألحانها وتغيِّر وتبدِّل، ثم تتوَّقف فيعلو

التصفيق، وتعود فيعود الصمت.. وكأن القوم على رؤوسهم الطير!

ساعتان من الزمان والآلات الموسيقية تتناجى وتتناغى، وتهدأ وتصخب. ثم.. انتهى العزف وتعالى التصفيق، وخرج الجمع.. وكان الله يبقى الله!

حول أقداح الشاى جرى حديث مع رئيس الفرقة، وكان يقطر عرقاً من أثر الجهد الذى بذل. تبودلت كلمات المجاملة والثناء والتقدير، وكانت عيناه حائرتين وهو يقول:

ـ لأوَّل مرة منذ بدأنا التطواف بفرقتنا هذه أحسُّ بمرارة الفشل.

ـ الفشل؟ سبحان الله! لقد كان نجاحكم ساحقاً ماحقاً. كيف تقول هذا يا رجل؟

ـ أقوله لأنَّنى لم أشعر بالتجاوب المفروض. لم يقفز أحد ليرقص. لم يتحرَّك أحد. كان الهدوء مخيِّماً تماماً. فى جولتنا كانت الجموع تهتز منذ الضربة الأولى. تغمرها النشوة.. تتشنَّج. ترقص. تغنِّى. تهدر كالشلاَّل. يا إلهى! يبدو أنَّ موسيقانا فاشلة فعلاً!.

وكانت التجربة الثانية هذا الأسبوع. فرقة غينيا الراقصة تدُّق طبولها الإفريقية على (مسرح الكشَّاف). ينضح العرق من أجساد الراقصين والراقصات، والمسرح يهتز ويتمايل تكاد تتحرَّك جدرانه لتشارك الفرقة طربها وفنّها، واللوحات تتوالى فى قصص شعبية ورمزية تكاد تنطق رغم اختلاف اللسان.

ثلاث ساعات من النقر والطبل والزمر يحرِّك الصخر الجلمود. وكنت ألاحظ بعض أقدام المشاهدين تساوق دقّات الموسيقى الملتهبة على استحياء وآخرين لاذوا بلفائف التبغ وبالصمت المطبق الثقيل، إلاَّ من بعض تصفيق لحركة مبدعة تأتي بها الفرقة بين حين وحين.

ترى ماذا يكون الحال لو قدَّمت الفرقة فنَّها فى مكان آخر؟ لا تسلنى.. فالجواب تعرفه أنت كما أعرفه. الجواب أنَّ الجمهور المشاهد لم يكن يدع مثل هذه الفرصة الثمينة تفلت من بين يديه ليخفِّف عن نفسه، ليفرغ شحنات السأم والملل، ليقفز من فوق المقاعد الوثيرة.. ينفعل، يصرخ، يطرب، يعبِّر عن مشاركته الإيجابية.

ولست بهذا أقول إنَّنا شعب لا ينفعل. كلا.. فالأدلَّة

على العكس كثيرة. لكنَّنا شعب (يتظاهر) بالـوقار.. يرتدى ثياب الحشمة.. ويرى فى التعبير عن عواطفه عيباً كبيراً. نحن نخجل من إظهار مشاعرنا. نكتمها.. نضغط على أحاسيسنا ونبرِّد لهب حماسنا فى ثلاَّجة المظهر الوقور. حتى إذا فاض الكيل هربنا إلى خارج الحدود، حيث نمزِّق الجيوب ونأتى بالعجب العجاب!

نحـن شباب لا يغنِّى. فإذا غنَّى جاء غناؤه نحيباً وبكاءً يقطع نياط القلوب. ونحن رجال يأكلهم الزيف، يقتل فى نفوسهم الحياة الحلوة الحارة الجميلة. ونساء حكم عليهن بالسجن الأبدى والعبودية السرمدية، وكتمت أنفاسهنَّ فى سراديب البيوت المعتمة حتى لا نسمع صوتاً واحداً منهنَّ اللهمَّ إلاَّ أن تكون (نجمة) من النجوم!!

هل تريدنى أن أتحوَّل إلى شيخ واعظ؟

نعم؟ فلتقرأ:

روى أنَّ النبى (ص) مرَّ بقوم يرقصون ويغنُّون ويدقُّون الطبل وينفخون فى المزمار، فما غضب ولا أشاح بوجهه، ولا نهر، بل قال ـ عليه السلام:

(ارقصوا يا أولاد الدركلة حتى يعلموا أنَّ فى ديننا فسحة)!

ولا ريب أنَّ جهداً خارقاً يجب أن يبذل، على نطاق واسع مدروس، يعلِّم الناس أنَّ الله خلق الفنَّ من أجل الإنسان وأنَّ الإنسان يتعبَّد بالفن. وعندما يقول - عزَّ وجل - إنَّه خلق الإنسان فى (أحسن) تقويم فإنَّما يعنى إبداعه المطلق، فقد كان ممكناً أن يخلقه فى (أقبح) تقويم. كان ممكناً أن ينزع من روحه الإحساس بالجمال ويمنعها من الشعور بنشوة الفن.. تلك التى يسميها أفلاطون (رعشة الروح المدركة).

إنَّ النفس الزئبقية وحدها - أو هى النفس الصدئة - التى لا تنفعل ولا تتجاوب، تراها تترجرج ناعمة بيضاء من خارج وهى فى داخلها سوداء لا يمكن الإمساك بها بين إصبعين.

ولم يكن الصوفية ليجيزوا السماع - أعنى الموسيقى - إلاَّ لإدراكهم مدى تأثيره فى تصفية النفوس وإزالة ما علق بها من أدران الحياة اليومية وكدِّها. هم أجازوه حتى يجد المريد فرصة ينفِّس فيها عن أشجانه وينغمس فى عالم النغم

المجرَّد، ويغوص فى أعماق اللحن، ويرتفع إلى ملكوت التجريد المطلق. ومن هنا كان تسبيح الملائكة منغّماً ترتجُّ له السموات والأرض تمجيداً للخالق الرحمن.

هل بَعُدَ بى الحديث عن الموضوع؟

كلا. فلا نزال فيه.

الطبول غير الجوفاء

كان رأيى أنَّ الطبل فى الموسيقى - كبر أو صغر - علامة من علامات التخلُّف. كنت أقول إنَّ القطعة الموسيقية لا تكون راقية إلَّا حين تخلو من هذه (الدربوكة) المزعجة. وحسبت أن لا دور لها ولا غاية سوى ضبط الإيقاع للآذان الثقيلة أو الطويلة على حد سواء!.

وكان ذهنى منصرفاً إلى الغنائيات الأوروبية و (السيمفونيات) المعتمدة على الآلات الوترية الهامسة حتى لا تكاد تسمع، فإن كان طبل بها وجب أن لا يتعدَّى دوره المرسوم المكتوب. وكنت أدعو الله - صباح مساء - أن يخلِّصنا من (دربوكة) نشاز يخبطها الخابط كيفما اتفق فلا تدري أهو (يموسق) أو يستعيد ثأراً قديماً بينه وبينها!

هكذا كنت أرى. حتى كانت ليلة من ليالى رمضان الجليلة وسمعت دقات الطبول، ليلة أقنعتنى فيها فرقة غينيا الصديقة بخطل رأيى وفساد مذهبى.

ستة من الرجال يحمل كل منهم طبله. تبدأ دقات رتيبة مجتمعة موحَّدة. يسكت الخمسة ويظل واحد منها يلعب به صاحبه كيف شاء. يدخل ثانٍ ثم ثالث، مختلف الضربات موحَّد النغم، والرابع يتحدَّى بخبطات سريعة متلاحقة، يتابعه الخامس كأنَّ الجن دخلت فى أصابعه، وتظلُّ الأصابع تتلاحق بسرعة الضوء والسادس ينتظر دوره ليغطِّى على الجميع.

ولأَّول مرة أسمع - بل أشاهد - ما يسمونه (الهارمونى) الموسيقى يبرز من بين دقات الطبول. يكاد يضحكك، أو يكاد يبكيك. يكاد ينطق كل طبل وهو يحاور زميله فى مرح يفلت التصفيق من بين الأيدى الجامدة.

لم تكن طبولاً جوفاء على كل حال. لم تكن (دربوكة) منكودة أوقعها حظّها السىء فى أيدٍ لا تعرف لماذا تخبطها ولا كيف. كانت طبولاً إفريقية لاهبة طروبة مطربة.

ولقد أبدلت من رأيى الذى كان!

إلى نيروبى .. والعودة

تنطلق التحيَّة باللغة السواحيلية من الفتى الأبنوسى وهو يجرى نحو حقيبة السفر يلتقطها من السيارة ويدخل بها الفندق الكبير فى قلب نيروبى، ثم يصعد بها إلى الغرفة ويضعها فى مكانها:

ـ جامبو معلمو!

يجىء الرد، وهو يرقب قادماً آخر بحقيبة أخرى، وهو يلهث مسرعاً، وهو ينظر إلى اليد والجيب، وهو ينتظر الشلنين الكينيين.

ـ أسنت أسانا.. معلمو!

تتلاحق الكلمات، والفتى الأبنوسى يلتفت دائراً بعد أن تناول الشلنين، ليلحق بحقيبة القادم الجديد.

«أحسنت إحساناً»!

ولست أدرى إن كنت أحسنت أم أسأت، فمبلغ علم

«المعلِّم» أنَّ الفتى الأبنوسى سوف يقصد بهذين الشلنين وغيرهما أقرب حانة ليصبَّ فى جوفه ما كتب الله من كؤوس الخمر الرديئة يثقل بها رأسه وينسى همومه وآلامه، ولا يعود يذكر أنَّ له وطناً وأهلاً وقبيلة. سوف يشرب ويشرب لينسى حقيقة واقعه المر، وتنفجر الضحكات من بين شدقيه وتنكشف أسنانه العاجيَّة عن ابتسامة دائمة بلهاء كأنَّها قناع إفريقى أبدى لا يزايله إلاَّ إذا صحا وذهب أثر الخمر الرديئة من يافوخه المستطيل كجوز الهند الأشعث.

منذ حطَّت الطائرة «الجامبوجيت» أو «الغولة النفَّاثة» حسب التعريب المتحذلق الجديد، فوق مطار نيروبى، تحمل جمعاً من أنصاف الآلهة البيض، وهذه الابتسامة الكينية المرسومة تنغرز فى قلبى كالمسامير. كانت الأسنان العاجيَّة اللامعة مسامير حقيقية تدمى الفؤاد، إنَّها ابتسامة لا يمكن التعبير عنها. هى ليست تعبيراً عن الرِّقة واللطف، ولا عن الترحيب والمجاملة، ولا عن السعادة وراحة البال. إنَّها ابتسامة تعسة.. بلهاء.. لا طعم لها على الإطلاق.

الكل يبتسم.. رجال الجمارك، وسائق عربة الأجرة،

ومندوب وزارة الخارجية، ووزير التعليم، كأنَّما سحروا جميعاً على يد ساحر من غابات المساى أو سقوا شراب تعويذة خلاَّبة، أو طعموا من نبات اللوتس الليبى القديم.

صحيح أن اللوتس انقرض لدينا منذ أيام المرحوم «هوميروس» وصحيح أنَّنى لم أشيِّع بابتسامة ليبية واحدة فى مطار طرابلس الدولى. لكنَّنى أعرف أن الليبيين نادراً ما يضحكون، غير أنَّهم إذا ابتسموا جاءت ابتساماتهم من القلب، تحسُّ بها نابعة من الأعماق وإذا ضحكوا كان ضحكهم لسبب.. فإنَّ الضحك من غير سبب لقلَّة الأدب.. كما يقولون!

وعلى هذا الأساس فإنَّ ابتسامة أهل كينيا قليلة الأدب حقَّاً. هى ابتسامة مرَّة كالحنظل. وقد كرهتها من أول نظرة.

* * *

ذهب الفتى الأبنوسى البشرة العاجى الابتسامة، وطفقت أحلُّ رباط الحقيبة وأتفقد محتويات الغرفة المخصَّصة لى. مريحة بلا ريب. بها كل ما يطلبه المرء، خدمة ممتازة متكاملة.. وجملة تعليمات وأوراق مطبوعة

بدأت أقرأها لأتعرَّف على ضوء ما جاء فيها. وقرأت:

1 ـ حافظ على نقودك.

2 ـ احذر اللصوص. والنشَّالين.

3 ـ ننصحك بأن لا تخرج إلى الشارع بعد الساعة التاسعة ليلاً.

4 ـ إذا اضطررت للخروج ليلاً فجانب الشوارع القليلة الإنارة وامشِ في الشوارع الرئيسية فحسب.

5 ـ لا تركب سيارة أجرة كيفما اتفق. يجب أن تتأكَّد من بطاقة السائق.

ما شاء الله.. ما شاء الله! هذه إذن «درة إفريقيا».. نيروبى. وحمدت الله أنَّ النهار لم ينتصف بعد وبذا يمكننى أن أخرج إلى الشارع وأرى نيروبى قبل أن يدركنى الليل والقتلة واللصوص!

* * *

الشوارع نظيفة لامعة، منسَّقة جميلة. المحلات تعرض كل ما فى أوروبا من بضائع. الميادين مرتَّبة حتى لتحسب نفسك فى أحد أحياء عاصمة الإنكليز. الفنادق سامقة

فسيحة رحبة القاعات. المتاجر والمكتبات كلّها لا تشعرك بأنّك فى إفريقيا الغابات والسباع.

تمثال «جومو كينياتا» جالساً كأى رئيس قبيلة إفريقية مهيب يرتفع عشرين متراً ويطلُّ على ميدان وسيع ينظر إلى «قاعة كينيانا» للمؤتمرات الدولية. بناء القاعة على شكل كوخ إفريقى يضم ردهات وغرفاً جهّزت لتحوى آلاف المؤتمرين بكل ما يحتاجونه من نواقل الصوت وأدوات الترجمة الفورية، ومقاه ومطاعم وآلات اتصال. وبناء آخر يشبه برجاً عالياً يرتفع ثمانى وعشرين طبقة، فى كل طبقة غرف وقاعات ومقهى. وعلى القمّة مطعم دوّار تجلس فيه لتتناول طعامك فلا تمضى ساعة حتى تكون رأيت نيروبى كلّها فى جلستك تلك. وأعلام الدول المشاركة فى مؤتمر «اليونسكو» التاسع عشر ترفرف أمام المبنى وترقب الطيور التى اتخذّت سواريها مستراحاً إلى حين.

وفود الدول من أركان الدنيا الأربعة داخلة وخارجة، تتّفق وتختلف، تناور وتحاور، وينافق البشر بعضهم بعضاً بنظام كأنّما اتفقوا عليه جميعاً. قرارات، ومشروعات القرارات، وتعديلات للقرارات، وتوصيات، ومناقشات،

وحكايات وهدرزات، والكل يسمع ولا ينصت، أو ينصت ولا يعى، أو يعى ولا يريد، أو يريد ولا يستطيع.

كان الجو رائعاً حقّاً. لا هو بالحار ولا هو بالبارد. كان بين بين. وقد هدأت ضجّة العربات فى الشارع وسكنت طيور كينيا سوى بضعة طيور ليلية يأتى صوتها من بعيد يذكّرنى بأشرطة «طرزان» فيما مضى من الزمان. أرقب الشارع من الدور الثالث وأرصد ما به، ولا أجرؤ على الخروج.. فإنَّ تعليمات إدارة الفندق فى منتهى الوضوح. ودهشت لأنَّ الشارع لم يكن خالياً. أرى هياكل تتحرَّك جيئة وذهاباً وأشباحاً عند أعمدة النور الخافتة، وبضع عربات تقف فجأة ويفتح بابها ثم تتحرَّك مسرعة ولصوت عجلاتها صرير.

لم تكن المسألة تحتاج إلى ذكاء ولا بعد نظر على أيَّة حال. فإنَّ نيروبى - كما حزرت - وكما أعلمت صراحة فيما بعد، تتحوَّل بعد التاسعة إلى مدينة أخرى من طراز آخر، لنساء الليل فيه نصيب الأسد، ينتشرن على امتداد الشوارع الكبيرة والميادين الفسيحة هنَّ والقتلة واللصوص على حدٍ سواء، وعلى الراغبين المجازفة وركوب الأخطار.

كان الأحد يوم عطلة. صحونا مبكرين رغم هذا أنا ورفاقى. جاءت حاملة صغيرة رسمت خطوط فوقها تشبه حمار الوحش، إشارة إلى تبعيتها لشركة سياحية هناك. وكان «شريف» سائقها يتكلَّم العربية بلهجة سودانية رغم تأكيده أنَّه من أريتريا. لعلَّه أراد استجلاب الاهتمام فى نهاية الرحلة بهذا الادعاء.

مئة ميل قطعتها الحافلة انتقلت فيها بين الفصول الأربعة. فى أعلى الجبال كان ضباب ورذاذ مطر، وفى المنحدر كان دفء وزهور ربيع، وفى السهل الممتدّ كان العرق ينضح من أجسامنا وضيق فى التنفس شديد..

ـ انظر. تلك زرافة يا أستاذ! زرافة وأخرى وثالثة.. ثمَّ قطيع بأكمله تعلو بأعناقها الغريبة نحو الأغصان القصيَّة لشجرة عجوز.

ونمضى.. ونمضى. لا شكَّ أنَّ رؤية حيوانات إفريقيا ممتعة. وأنا آمن داخل الحافلة أتبعها بآلة تصوير من بعيد. والجميع يصيح: هناك قطيع من الفيلة. آه.. انظر إلى جملة الغزلان البديعة تلك. يا ليتنا نرى الأسد اليوم! غير أنَّ

الأمل خاب فى رؤية الأسد الهصور. وقيل لنا إنَّه لا يخرج إلاَّ مرتين من عرينه: فى الصباح وفى المساء. ليفطر ويتعشَّى. وهو يوفِّر وجبة الغداء حفاظاً على رشاقته، واتباعاً «للرجيم» كما علَّق أحد الرفاق!

* * *

يا إلهى!

آلاف من الطيور البيضاء اصطفَّت بنظام غريب من الأفق إلى الأفق. إنَّها لا تتحرَّك، كأنَّما هى جنود البحرية فى طابور الصباح، فوق مساحة شاسعة من أرض طينية ملساء. مناقيرها الصفراء الفاقعة كأنَّما لمَّعتها خصيصاً لتبدو من بعيد مثل أزرار الجند النحاسية. وأقدامها الطويلة جدَّاً مغروزة فى الطين فى حالة تأمُّل أبدى فى الملكوت. منقار يتلو منقاراً.. انتباه!!

كانت طيور «الفلمنقو» مدرَّبة بلا ريب على هذا الاستعراض اليومى لاستقبال أفواج السيَّاح والزائرين. هكذا فكرت. وهى تعوَّدت على رؤية البشر فلا تكاد تطير إذا رميتها بحجر، أو لعلَّه الكسل الإفريقى. وحين نجح أصحابى فى إثارتها وطار فريق منها ضيقاً بنا كانت أجنحة

الثلج الناصعة تشكِّل لوحة متناقضة عجيبة وأنا أحيى بعض صبية تجمَّعوا من حولنا بأجسادهم الابنوسية اللامعة.

ـ جامبو!..

* * *

ـ جامبو.. معلمو!

ـ جامبو.. معلمو!

جاء رد الصبية، مع الابتسامة ذاتها، وبرقت أسنانهم العاجيَّة وهى تعكس أشعَّة الشمس القزيبة جداً من رؤوسنا..

ـ ما اسمك يا بنى؟.

كان سؤالى عادياً يوجَّه كأى سؤال محاولة لبدء حديث ما.

ـ جون كميس.. معلمو.

ـ وأنت.

ـ فيليب سئيد.. معلمو.

خميس وسعيد. اسمان عربيان، إسلاميان، اسمان لأبوين من قبيلة المساى كانا مسلمين وجاء ابناهما ليصيرا

جون وفيليب. وكان وراء هذا التحوُّل بعثات التبشير النصرانية النشطة جداً هناك، وأرباب العمل الأوروبيون، وأعمدة الاستعمار من أجانب ووطنيين.

منذ عشرات السنين وأفواج المبشِّرين تتوالى على إفريقيا كلِّها وعلى شرقها بالذات. يأتون على هيئة أطبَّاء وممرضات ومعلِّمين وتجَّار وموظفين بالإدارة ورهبان متبتِّلين.

ومئات الملايين من الجنيهات والدولارات تنفق دون تقتير ليس لتنصير الوثنيين فحسب بل وتحويل المسلمين عن دينهم كذلك. وهم إن فشلوا مع الآباء والأمهات فقد نجحوا مع أطفالهم.

كانوا يأخذون أطفال الفقراء إلى مدارس الإرساليات ـ وثنيين ومسلمين ـ ويربُّونهم كيف يشاءون. وبذا استطاعوا تحقيق النجاح المطلوب.

* * *

رنَّ جرس الهاتف فى غرفتى وكان المتحدِّث طبيباً معروفاً بنشاطه فى المجتمع الإسلامى هناك. وهو من أصل آسيوى. دعانى إلى عيادته القريبة على قدح من الشاى.

استجبت للدَّعوة.. وحين وصلت استقبلنى بترحاب وأدخلنى قاعة صغيرة جلس فيها رهط من الشباب الصغير السن وفتاة واحدة كلُّهم كينيون. قال:

ـ هؤلاء جنودى. إنَّ بعضهم فى المدارس الثانوية. وبعضهم يعمل لكسب قوته.. فليس الجميع بقادر على دفع مصروفات المدرسة التى تبلغ ثلاثة جنيهات فى السنة! إنَّهم من أماكن مختلفة وقبائل شتَّى وهم مسلمون يحضرون دروساً فى الدين ويبحثون عن المستقبل.

تحدَّث الرجل كثيراً وكان حديثه مليئاً بالأسى مثل أى حديث تسمعه هناك فيما يتعلَّق بالإسلام والمسلمين وتحدَّثت أنا إليهم. شعرت برابطة قوية تشدُّنى نحوهم. وتحدَّث بعضهم عن أمله في استكمال دراسته للعودة إلى قبيلته أكثر علماً وتحصيلاً، وكانت أنظارهم مشدودة إلى ليبيا وأحلامهم أن يحصلوا منها على كل شىء يعينهم فى كفاحهم المرير من أجل العيش والعلم والإسلام.

تذكَّرت «جون خميس» و «فيليب سعيد» وأنا أطوف ببصرى فى الوجوه «الابنوسية» أمامى. وأدركت ثقل

الواجب وعظم المسؤولية. ولم أجد ما أقول.

* * *

عدت بذاكرتي إلى رحلة الأمس. تذكَّرت رعاة قبيلة المساى وهم يتسلَّقون صخور جبل الجرف خلف قطيع الماعز وليس على أجسادهم سوى خرقة حول الوسط. بعض منهم تطوَّر ووقف على الطريق يبيع للسوَّاح تماثيله الخشبية والأطباق الملوَّنة وجلود الخراف الصوفية البيضاء.. وتعلَّم كيف يزيد فى السعر عند العرض الأول لينقصه إلى الربع بعد المساومة والجدال. بينما ظلَّ البعض الآخر لا يعرف من الدنيا سوى الغابة والجبل وقطيع الماعز الباحث عن عشب أخضر بعد طول مواسم الجفاف.

وأدركت سرَّ الابتسامة البلهاء على الشفاه الكينية.

أدركت أن نيروبي درَّة إفريقيا فعلاً.. لكن لأنصاف «الآلهة» البيض، يستمتعون بها كما يشاءون. نظافتها لهم وحدهم، وفنادقها لهم دون غيرهم. ومنتزهاتها لهم دون سواهم. أمَّا السود فهم العبيد حقَّاً وفعلاً وليس قولاً مجازيَّاً بحال من الأحوال.

أدركت أنَّ الفقر والمرض والجهل من نصيب السكَّان الوطنيين، يذرفون دموعهم فى الأكواخ الحقيرة فى ظلمات الليل والغابة ويبتسمون للغريب علَّه يجود بشلن أو شلنين يدفع فى كأس خمر رديئة تنسيهم أحزانهم المرَّة.

عرفت أنَّ الاستعمار كان شاملاً: اقتصاداً وتجارةً وتعليماً وديناً وخلقاً. وانَّه مزَّق التقاليد الإفريقية ليجعل من الدعارة شريعةً، ويحول الأطفال عن دينهم، ويسلب كرامتهم ويستحلّ عرضهم.

وعلمت إلى أى مدى نحن مقصِّرون. «ونحن» نعنى المسلمين جميعاً والعرب بصفة خاصة. ولست أدرى إلى متى هذا السبات العميق والخطر يشرع مخالبه ليبتلعنا كما ابتلع إخواناً لنا من قبل.

* * *

طائر الفلمنقو الحزين فى وقفته السرمدية لا يزال هناك.

وتمثال جومو كينياتا فى جلسته المهيبة يطلُّ على ميدان المؤتمرات.

وجون خميس وصاحبه فيليب سعيد يبتسمان ببلاهة.

وطائرة (الغولة النفَّاثة) تدور محركاتها الجبَّارة في رحلتها الطويلة إلى لندن تستعدُّ للإقلاع. والمضيفة الشقراء تعلن بصوت مخملي:

- سيداتي وسادتي. مرحباً بكم على متن طائرة الجامبو..

ولم أسمع بقيَّة حديث المضيفة. فقد ملأت مخيلتي صورة الفتى الابنوسي المبتسم وهو يحييني:

- جامبو.. معلمو!

مِن "الأسبوع السِّياسي"

1979

إفريقيا.. إلى أين ؟

فى الخمسينات كانت بداية الوهج الإفريقى، الستينات شهدت مرحلة الفعل ورد الفعل فى القارة السوداء، ونحن فى أواخر السبعينات نسأل هذا السؤال:

ـ إفريقيا.. إلى أين؟

كانت ثورة يوليو بقيادة جمال عبد الناصر انفجاراً ضخماً أضيف إلى جملة الانفجارات الأخرى التى بدأت تزلزل الأرض تحت أقدام المستعمرين الذين جعلوا من القارة العظيمة مجرد مزرعة ومنجم كبيرين. ولم تلبث الثورة الناصرية أن أخذت زمام المبادرة أثر جملة معارك مباشرة مع الاستعمار فى مصر والوطن العربى. وكانت إفريقيا تقع ضمن الدوائر الثلاث المشهورة التى حددتها (فلسفة الثورة).

كان عبد الناصر يسند الانتفاضات الثورية فى القارة، وكانت الحركات التحررية تسنده هى الأخرى فى صراعه مع الاستعمار. وإلى جانب ما سبق من حركة (ماو ماو) فى كينيا، برزت حركات التحرير فى المغرب وكانت أهمها وأعمقها أثراً الثورة الجزائرية الكبرى، وظهرت زعامات إفريقية سوداء من مثل نكروما وموديبو كيتا وسيكوتورى ثم باتريس لومومبا من بعد.

كانت أفريقيا تتفجر غضباً وثورة، وتنتفض شعوبها واحداً بعد الآخر، فى صدام مباشر مع الاستعمار والاحتلال الأجنبى، وكان النضال المسلح وسيلة فعالة فى إجبار المستعمرين (بريطانيا وفرنسا بالذات) على إدراك الواقع الجديد والتسليم به ثم الإذعان لمطالب الشعوب الإفريقية فى الحرية والاستقلال.. وهكذا شهدت أواخر الخمسينات وبداية الستينات سلسلة متواصلة من دول إفريقية نالت استقلالها ورفعت أعلامها، واندفعت زرافات لتنضم إلى الأمم المتحدة وليخطب رؤساؤها من فوق منبرها مزهوين فرحين تأخذهم النشوة وتستخفهم البهجة والحبور.. ومعهم الحق كله.. إذ لم يبق من

الاستعمار الأوروبى المباشر لقارتهم سوى جيوب قليلة تمثلت فى جنوب إفريقيا وزيمبابوى، والمستعمرات البرتغالية التى نالت حريتها السياسية بعد ذلك بقليل. وبذا بدأت مرحلة أخرى هى مرحلة الفعل ورد الفعل.

الفعل جاء من حركات التحرر التى أشرنا إليها، أما رد الفعل فقد أتى من جانب الدول الاستعمارية الأوروبية، بل حتى من تلك التى لم يكن لها (شرف) استعمار القارة مباشرة، بالإضافة إلى الولايات المتحدة الأمريكية بما فيها ولاية إسرائيل.. كيف؟

أعلنت الدول الاستعمارية استسلامها للأمر الواقع ظاهرياً، بل رحبت بانطلاقة أفريقيا الجديدة، وكان ديغول وكندى (زعيمين) كبيرين ومشجعين شهيرين لمرحلة الانعتاق والانطلاق هذه.. وقد أبرز هذا الموقف بوضوح فى برامج (المساعدات) الأمريكية و(صراع) الزعيم الفرنسى داخل بلاده ضد معارضى سياسته. بيد أن موقف ديغول وكندى لم يكن سوى تغطية ذكية لهدنة مؤقتة أعاد فيها الاستعمار حساباته وقرر خطة جديدة يعود بها من النافذة بعد أن أخرج من الباب..

وهنا يدخل عامل جديد يتجسد فى صراع القوى الكبرى ووجود عناصر أخرى فى الميدان الذى كان خالياً من قبل، إلى جانب أن شعلة الثورة لم تكن خمدت ولم يكن ممكناً مواجهة النار الملتهبة إلا بتفاديها أو الالتفاف حولها وبذل الجهد لإطفائها.

هنا نجد نفسنا فى أواسط الستينات، وبين ثورة اليمن وحرب يونيو 1967 توالت أحداث ضخمة لها أثرها العميق على مسيرة أفريقيا. شغل عبد الناصر بأحداث المنطقة العربية، ثم كانت ضربة يونيو القاصمة. وبدأ تراجع الثوار فى أفريقيا السوداء.. الاغتيالات، والانقلابات، والدسائس، والمؤامرات، ومرحلة من الاستدراج المتأنى لتقع أفريقيا فى الفخ المنصوب، وشاهدت الستينات ثم السبعينات سلسلة متوالية من الهجوم الاستعمارى على مختلف الجبهات السياسية والاقتصادية، والعسكرية أيضاً.

سياسياً: أطيحت الزعامات المضادة: لومومبا، موديبوكيتا، نكروما، أحمدو بيلو.. ثم عبد الناصر. سكت الماوماو عن الزئير وتحول إلى قطة تموء بهدوء.. نصِّبت دمى تلعب على المسرح، تحركها خيوط السادة

الكبار، وصارت أسود أفريقيا ونمورها، بل وفيلتها مجرد خراف ودواجن مسلوبة الإرادة.

اقتصادياً: دخلت الشركات المتعددة الجنسية، وانهالت المشروعات الإسرائيلية ـ الممولة من أوروبا ـ وتم التحكم فى مصادر القارة الطبيعية وفى تجارتها، وكل ما يمت للاقتصاد بصلة بطوق شديد الإحكام.

عسكرياً: لعب المرتزقة أدوارهم فى مختلف أنحاء أفريقيا، وكان التدخل العسكرى المباشر فى الكونغو وموزمبيق وانغولا، إضافة إلى روديسيا وناميبيا، ثم جاء سافراً فى تشاد على حدودنا الجنوبية.

بعد هذا بدأ تنفيذ الجزء التالى من الخطة: فصل أفريقيا عن العرب. وهو أهم نقطة بالنسبة إلينا فى هذه المرحلة بالذات، ذلك لأن خسارة أفريقيا لنا أو خسارتنا نحن لأفريقيا طعنة مزدوجة يحقق بها الاستعمار الجديد جملة أهداف ليس أقلها إضعاف قوة المواجهة له وانهيار المقاومة لمخططاته ثم بالتالى عودة الاستعمار بشكله القديم أو الجديد على حد سواء.

يصوَّر العرب الآن فى كل مكان على أساس أنهم سبب (بلاوى) الدول الأفريقية كلها، باعتبارهم أهل النفط والحل والربط، ولا يشار مطلقاً فى هذا المجال إلى الدول النفطية غير العربية (مثل فنزويلا وإيران وأندونيسيا والمكسيك فضلاً عن بريطانيا والنرويج وأمريكاو.. نيجيريا!) وبذا صار العرب وحدهم المسؤولين عن متاعب العالم ـ ومنه أفريقيا ـ ومشاكله الاقتصادية.

ويصوَّر العرب أيضاً بأنهم (**تجار العبيد**) الوحيدون ويركَّز على هذا الأمر فى كل ميدان. ولا أحد يسأل عن أصل الثلاثين مليون زنجى فى أمريكا وحدها، ولا عن عشرات الملايين منهم فى أمريكا الجنوبية وجزر الكاريبى.

ويفصل الآن فى المحافل الدولية بين شمال الصحراء وجنوبها فصلاً متعمداً يحسه المرء، إيهاماً للأفارقة السود بأن أهل الشمال لا يمتون لأفريقيا بصلة. ولا أحد يتحدث عن جنوب أفريقيا ولا عن الأسيويين فى شرقها أو الأوروبيين فى كل أنحائها.

وهكذا تستمر الخطة، ويرى المرء نجاحها ـ للأسف

الشديد جداً ـ فى عدة أقطار أفريقية تظهر من خلال مواقفها داخلياً وخارجياً، وهكذا نجد أنفسنا نسأل: أفريقيا.. إلى أين؟!.

وتبقى حقيقة يجب أن تقال ـ شاء من شاء.. وكره من كره: لقد خمدت أغلب شعل الثورة فى هذه القارة.

- **سقطت مصر بيد رئيسها فى حمأة العفن الاستعمارى.**
- **تحول أغلب حكام القارة إلى دمى وألعاب تتحرك بالخيوط والنضائد.**
- **هجوم استعمارى شديد الترابط والارتباط.**
- **فشل نفط العرب فى أن يزيد اللهب الثورى، بل تحول أحياناً إلى ماء مثلج.**
- **صار الضغط الاستعمارى واضحاً فى كل المجالات.**

وكلمة أخرى تقال.. شاء من شاء وكره من كره.. أيضاً:

تبقى هذه الجماهيرية منارة الأمل للشعوب المقهورة

المغلوبة على أمرها وهى ـ بحكم ظروف ثورتها وظروف العصر ذاته ـ مناط الرجاء فى صد الهجمة المضادة لمستقبل القارة الإفريقية، ولا شك أن اهتمامها بأفريقيا وتحالفها مع بقية القوى التحررية فيها، وكشف المناورات الاستعمارية فى الداخل والخارج لشعوب القارة، ومساندة قوى الثورة ضد الظلم والاستغلال، هو الذى يمكِّننا من الإجابة عن سؤالنا:

ـ أفريقيا... إلى أين؟

... والرأى العام العالمى ؟!

فى نشرات الأخبار والتعليقات والمقالات والمقابلات والخطب الرسمية وغير الرسمية والمناقشات والمجادلات والمناظرات والمطارحات.. فى وسائل الإعلام والمؤتمرات الدولية وغير الدولية واللقاءات والاجتماعات والمباحثات الودية وغير الودية. فى الصباح والمساء وعند القيلولة والهزيع الأخير من الليل.. ترانا مشغولين منشغلين بهذا الذى يسمى ـ الرأى العام العالمى ـ..

نكسبه نخسره، معنا ضدنا، تغيرَّ ثبت، أيَّد عارض، وقف قعد، اتفق انقسم.. إلى آخره إلى آخره.. دوامة أثر دوامة من القلق والترقب ومحاولة اكتشاف إلى أين يتجه هذا المعزَّز المكرم.. الرأى العام العالمى...

تطرح قضايانا واحدة بعد أخرى ـ تطرح أرضاً ـ فى

قاعات الأمم المتحدة ومنظماتها التى لا يحصيها العد، وننطلق إلى اجتماعاتها وفداً بعد وفد. وأيدينا على قلوبنا ونحن نحصى - قبل التصويت - عدد المؤيدين والمعارضين والممتنعين عن التصويت.. خوفاً أو طمعاً. وتكتب التقارير المطولة تحلِّل وتعلِّل وتتحدث كلها عن هذا الغول المرعب الذى يقض مضاجعنا ويطيِّر النوم عن أجفاننا ونحن نلهث وراءه ونجزع.. الرأى العام العالمى..

فما الحكاية؟؟..

ما هو هذا - الشيء - الغريب العجيب المرتدى طاقية الإخفاء؟.. نحسه ولا نراه. ويبدو لنا مثل الزئبق لامعاً براقاً منزلقاً رجراجاً لا يمكنك أن تحتويه بين إصبعيك؟.

قالوا: أن تكسب الرأى العام العالمى يعنى أن تجد لك أنصاراً فى كل بلد من هذا العالم.. أنصاراً هم مجموع المؤيدين لك، يكونون مجموع الناخبين يختارون حكومات تكون بالتالى مجموع الأصوات المساندة فى مجموعة المنظمات الدولية... فتكسب!

وقالوا: إن تقنع جميع شعوب الأرض - بألوانها

المتعددة ـ بأنك على حق، وإنك مثال الخير والصلاح ـ تفعل هذا بألف لغة ولغة مما سبق ذكره أعلاه وما لم يسبق. حتى تندفع كلها وراءك.. فتكسب!

وقالوا: الشطارة فى اكتساب الرأى العام العالمى أن تكون متغلغلاً فى مسام جلود الأربعة آلاف مليون ابن آدم على هذه الأرض، وأن تستطيع بإيماءة خفيفة أن توجههم يميناً ويساراً وشمالاً وجنوباً.... فتكسب!

وقد ألفت الكتب وأعدت المحاضرات وقدمت البحوث والدراسات وعلى مدى عشرات السنين شغلونا بهذا.. الرأي العام العالمى.. ووقعنا نحن ـ بسذاجة ـ فى الأحبولة المنصوبة وسقطنا كالذبابة التعسة فى بيت العنكبوت.

فما الحكاية؟..

الحكاية أن (حكاية) الرأى العام العالمى لا تعدو مجرد كذبة أخرى لو عرفنا حقيقتها لما أصبح لها معنى ولا محتوى ولا قيمة على الإطلاق.. ولو أدركنا كنهها لصارت المستحيلات أربعة: ـ الغول والعنقاء والخل الوفى.... ثم

نضيف الرأى العام العالمى! فإلى أى مدى يمكن تبرير هذه المحصلة المؤلمة؟..

إن التجربة هى أداة المعرفة الأولى. ومن التجربة الطويلة المرة ندرك هذه الحقائق:

● المصلحة، وأعنى الاقتصادية منها بالذات.. هى الموجِّهة الحقيقية لمواقف الأفراد والجماعات..

● كل ما يقال عن ضغوط الرأى العام فى أى بلد من بلدان العالم، على اختلاف نظمه، أمر لا وجود له على الإطلاق، إذ أن الناخب لا يمارس أى نوع من الضغط على من انتخبه بعد انتهاء عملية الانتخاب..

● أما بالنسبة للحكومات فإنها لا ترتبط بشىء سوى برنامجها الذى اختيرت على أساسه - إن فعلت - وهو غالباً ما يكون ملتزماً بالسياسة الداخلية، ولا علاقة له بالسياسة الخارجية، ولا بقضايانا بطبيعة الحال.

● إن كل ما يردَّد عن إمكانية توجيه وسائل الإعلام العالمية هراء لا طائل من ورائه سوى تبذير الوقت والجهد والمال.. إذ لا يزيد مجموع المتحكمين فى هذه الوسائل عن

عشرة رجال هم مديرو وكالات الأنباء والمؤسسات الإذاعية والصحافية العملاقة، تربطهم جميعاً سلسلة متصلة من الشركات التجارية الأخطبوطية المهولة..

ثم تظهر لنا عدة حقائق أخرى تتلخص في أن هذا الرأى العام العالمي شيء موهوم غير موجود على الحقيقة.. هل استطاع هذا الرأى أن ينهى قضية واحدة من قضايا جنوب أفريقيا أو أمريكا اللاتينية أو آسيا.. دعك من قضايا الوطن العربي؟.. هل أمكنه أن ينهى احتلالاً أو يرفع ظلماً أو يمنع غزواً أو يسكت صوت المدافع؟.. هل استطاع أن يحقق عدلاً أو يقر حقاً. مهما بدا الحق جلياً كشمس الظهيرة؟ مطلقاً...

فما الذى ينبغى عمله إذن؟...

لنلخِّص ما سبق ولنخلص منه إلى نتائج محددة:

- **الرأى العام العالمي أمر وهمي، فلا يجب أن يشغلنا بهذا الشكل المثير.**
- **المصالح هي الموجِّه الوحيد للمواقف، فلنحدِّد نحن موقفنا على هذا الأساس...**

● **إن الصورة الخارجية لوطن ما إذا كانت هذه الصورة تهمنا ـ تتحدد بمدى النجاح الداخلى على المستويات كافة، فليكن الاهتمام ببناء الداخل سبيلنا إلى النجاح فى الخارج.**

لقد ضربت بعض الشعوب نطاقاً حول نفسها. غير ملتفتة إلى هراء الرأى العام العالمى، متفرغة للبناء والتشييد والتنظيم.. وانصرفت أخرى عن لغو القرارات الدولية ومناورات الاجتماعات والمداولات لتهتم بإنماء قوتها الذاتية.. وامتنعت غيرها عن النظر إلى عدد المؤيدين والمعارضين.. ولكنها كسبت.. ما يسمى بالرأى العام العالمى بالمقاييس الموضوعة حين ربطت هى هذا الرأى إليها ولم تربط هى إليه..

... والرأى العام العالمى؟.

إنك توشك أن تضحكنى.. للأسف!

من يستخدم من ؟

نحن نمر الآن بمرحلة إعادة الحسابات. وهى مرحلة تعنى إعادة النظر من جديد فى جميع الأفكار المتوارثة وتقييم النظريات الموروثة، تقييماً يستند إلى جملة معطيات المراحل السابقة بكل هزائمها وانتصاراتها، بحلوها ومرها على حد سواء. ولا شىء يشغل بالنا ويأخذ علينا جماع تفكيرنا وحياتنا أكثر من هذا الصراع الذى تخوضه الأمة العربية ضد عدوها الشرس المتمثل، ظاهرياً، فى الكيان الصهيونى المزروع فى فلسطين.

منذ عقود طويلة من الزمان ونحن نلّقن هذا الدرس: الصهيونية تتحكم فى العالم، واليهود يسيطرون على كل مقدراته، اقتصاداً ومجتمعاً وإعلاماً وعلماً وتقنية، وهم استطاعوا أن يسخّروا القوى كلها ـ غرباً وشرقاً ـ فى سبيل خلق دولتهم والدعاوة لها وترسيخ وجودها. استطاعوا أن

يسخِّروا أوروبا، ثم أمريكا، ولا يزالون، لإيجاد كيانهم الصهيوني ثم تثبيته على مر السنين. الله غالب! ما الذى يمكن عمله وهم على هذا المستوى من الذكاء، بل العبقرية، والقدرة والسيطرة على مختلف أجهزة العالم؟ هكذا لقِّنا.

فهل هذا صحيح؟

هل حق أن الغرب، أعنى أوروبا وأمريكا بالذات، مغلوب على أمره إلى هذه الدرجة من المهادنة بل الخنوع لليهود؟ هل بلغ اليهود من المقدرة (السوبرمانية) هذا الحد الخارق حتى لا يقف في سبيلهم معترض إلا سحقوه؟ هل صحيحة هذه (الأسطورة) عن النفوذ الصهيونى فى الدوائر الغربية على مختلف مستوياتها؟ وأخيراً.. هل حق أن اليهود هم موجهو سياسة الغرب المعادية للأمة العربية فى كل المجالات، دفاعاً عن إسرائيل المدللة بهذا الشكل الذى لم يعرف ـ ولن يعرف ـ التاريخ له مثيلاً، وأن الغرب (المسكين) أسير السيطرة الصهيونية لا يستطيع منها فكاكاً؟

لنعد حساباتنا.

ويجب ألا نخدع أكثر مما خدعنا بهذه المقولة الخطيرة..

فالحق أن الحديث عن السيطرة الصهيونية والنفوذ اليهودى وقوة تأثير إسرائيل فى الدوائر الغربية ليس سوى أكذوبة كبرى ألقيت إلينا وصدَّقناها نحن على مر السنوات. وكان الهدف من هذه الأكذوبة يشتمل على عدة نقاط:

● أولاها: إيهام الأمة العربية بأن عدوها بالغ القوة والمنعة، حتى أن الغرب ذاته خاضع له، فلا جدوى من المقاومة ولا نفع من رفع السلاح فى وجهه.

● وثانيتها: تبرير مواقف الغرب العدائية تجاه أمتنا - على المستوى العسكرى والاقتصادى والسياسى حتى يجد عملاؤه فى وطننا تكئة يستندون إليها فى الدفاع عن مصالحه وتخفيف رد الفعل العربى تجاهه.

● وثالثتها: تبرير مواقف الساسة الغربيين أمام مواطنيهم أنفسهم، حين يجدون بعض المصالح الغربية يصيبها الضرر، ولذا يضخم فى ذهن المواطن الغربى مدى النفوذ الصهيونى ويقدم اليهودى باعتباره نموذج الذكاء والعبقرية والمقدرة.

ولنعد حساباتنا مرة أخرى ولنسأل:

من يستخدم من؟ هل يستعمل اليهود أوروبا لخدمة أهدافهم أم أن أوروبا هى التى تستغل اليهود لتحقيق أغراضها؟

ولنضع هذه الحقائق أمام أنظارنا:

1 ـ لم يتعرض اليهود فى أية منطقة فى العالم مثلما تعرضوا له فى أوروبا من اضطهاد. فقد أخرجوا من انجلترا ثلاث مرات، وطردوا من إسبانيا تماماً مرتين، وعذِّبوا فى فرنسا وألمانيا.

2 ـ فشلت الحروب الصليبية على مدى مئات السنين فى السيطرة على العالم العربى والإسلامى وكانت المقاومة من العنف بحيث يئس الغربيون من تحقيق أهدافهم عن هذا السبيل.

3 ـ كان إخراج اليهود من أوروبا حلماً يراود ملوكها ـ لأسباب دينية وعرقية ـ وقد وجد الغربيون أن اليهود يعودون إليهم كلما طردوهم مرة بعد مرة.

4 ـ إذا اتحد الوطن العربى بعد يقظته الحديثة فإن الدائرة ستدور على الغرب بحكم قانون الحضارات وتسلسل

أحداث التاريخ. وهذا أكبر خطر تخشاه الحضارة الغربية باعتبار الحضارة الإسلامية هى المتحدى الأول لوجودها بكل ما تحمله من أسس.

5 ـ إن مصالح أوروبا الغربية وأمريكا فى الوطن العربى ـ فى العصر الحديث ـ وتغيُّر موازين القوى بظهور نماذج سياسية واجتماعية أخرى فى شرق أوروبا وآسيا ذات مصالح وتطلعات، لا تسمح بصدام مباشر مع الأمة العربية على نسق الحروب الصليبية أو طراز الاستعمار فى القرن التاسع عشر، إذ أن النتيجة معروفة مسبقاً إذا ما وقع هذا الصدام.

لذا ـ هكذا يمضى التفكير الغربى ـ لا بد من استخدام أداة جديدة ـ قديمة تكون هى وسيلة تحقيق الأهداف مع الظهور بمظهر البراءة الكاملة، بل مظهر المغلوب على أمره على كل حال. وكانت الصهيونية هذه الأداة. استغلت أوروبا الأحلام اليهودية القديمة، وأرَّثت نار الحقد فى نفوس اليهود، واحتضنت مدينة بال بسويسرا أول مؤتمر صهيونى يفكر جدياً فى إنشاء دولة يهودية فى فلسطين. وتوالت الأحداث: وعد بلفور ـ خيانة بريطانيا للعرب،

تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين ـ مد اليهود بالسلاح ـ دخول أمريكا إلى ساحة اللعبة ـ إنشاء الكيان الصهيونى ـ تفتيت الجبهة العربية من الداخل عن طريق الخونة والعملاء ـ إلى آخر ما يعرفه الجميع.

● صرف اليهود النظر عن إنشاء وطن قومى لهم فى أوغندا.. لماذا؟

● امتنعوا عن الهجرة إلى أستراليا القارة البكر الفارغة من السكان.. لماذا؟

● عمِّقت الخلافات العربية، وتواطأ الغرب مع اليهود فى كل خطوة.. لماذا؟

● جعلوا من إسرائيل مخزناً حربياً يضم أحدث الأسلحة، بما فيها القنبلة الذرية وآخر طراز أدوات الموت.. لماذا؟

ليس لسواد عيون اليهود بالطبع، ولا لأن سيطرتهم بلغت القمة كما يقال لنا. لسبب بسيط: هذا هو السبيل لمنع وحدة العرب والخنجر مغروز فى القلب، وحرمانهم من تحقيق تطلعاتهم، وصرفهم عن أسباب التقدم انشغالاً

بمحاربة العدو المزروع فى أرضهم.

إسرائيل هى بالضبط مخلب القط. ولا يمكن بالطبع أن يفصل القط عن مخلبه، فهما فى جسد واحد. وإذا كان اليهود استغلوا موقف الغرب بهذا الشكل، فإن الغرب ذاته استغل اليهود بشكل أفضل بالنسبة إليه.

وهكذا حققت أوروبا (وأمريكا أوربية النشأة والاتجاه) جملة أهداف بعمل واحد: تخلصت من اليهود، وأجبرت العرب على التقهقر الحضارى، واستمرت كالعلقة تمتص دم الأمة العربية - بمنتهى البراءة والطهر.. و.. الله غالب!

لنعد حساباتنا للمرة الثالثة:

هراء كل ما يقال لنا. وكذبة كبرى هذا الضجيج عن سيطرة الصهيونية على أجهزة الإعلام والاقتصاد والتقنية.

وتخريف كل ما يلقى إلينا من حديث عن عبقرية اليهودى وتوقد ذكائه. فاليهود - وارجعوا للإحصائيات - لا يمثلون نسبة تذكر فى عداد العباقرة. الدعاية هى التى تنفخ فى أينشتاين حتى ينسى إلى جانبه سواه. وهم - بحكم

التكوين العرقى المحصور - أقل من غيرهم مستوى ذكاء.

علينا أن ندرك الحقيقة ونجابها إن أردنا الصحوة من سكرتنا هذه: الغرب استخدم اليهود ضد الأمة العربية والإسلامية. وكان اليهود على استعداد. فالعدو واحد إذن. كل ما فى الأمر أنه لبس قناعاً وخدعنا به طويلاً. بقى علينا تمزيق القناع، ثم الوجه بعد ذلك.

هذا هو الطريق.. ليس غير..

إنتباه !

«انهيار 79». رواية مثيرة صدرت منذ عامين، تنبأ فيها كاتبها بوقوع صدام عسكرى رهيب فى منطقة الخليج العربى بين القوى السياسية والاقتصادية يحدث فى عامنا هذا الذى نحن فيه ويكاد يؤدى إلى حرب عالمية نووية مدمرة.

بالأسماء المعروفة للشخصيات الحقيقية فى المنطقة وأسماء العواصم والمدن والمصارف والفنادق بل حتى عناوينها وأرقام هواتفها، وكمية هائلة من المعلومات المسربة إلى الكاتب عن الحياة الشخصية لأبطال روايته، يجعل المؤلف قارئه ممسكاً بأنفاسه يتوقع أن يسمع أخبار الصدام المفزع فى نشرات الأخبار أى يوم من الأيام. وقد جعل الكاتب الشخصية المحورية لروايته شاه إيران المخلوع محمد رضا

بهلوى وحوله ركّز جملة الأحداث.

وقد ذهب الشاه إلى الجحيم بثورة إسلامية عارمة لم يحسب الكاتب أو غيره لها حساباً. وبذا انقلبت الموازين وتغيرت المقاييس وصارت الرواية ـ وما أحيطت به من روايات جانبية ـ مجرد حكاية خيالية مثل غيرها من الحكايات.

المهم ليست الرواية التى احتلت رأس قائمة أكثر الكتب انتشاراً طيلة شهور، ولا ما جاء فيها من نسج خيالى أو حقيقى. المهم ما بدأ به المؤلف روايته معدداً أسباب الانفجار المتوقع هذا العام ـ بعد سنتين من صدورها. من جملة الأسباب عنده غرور الشاه الفارسى وطموحه الشخصى لبناء امبراطورية قورش من جديد والاستيلاء على منابع النفط العربية مثلما استولى على جزر عربية من قبل، ثم تدعيم الكيان الصهيونى لهذا الطموح ومساعدته على المضى فى خططه إلى جانب الوهن العربى فى المنطقة وتشابك المصالح الأجنبية بل وترابطها.. بيد أن السبب الأهم لديه هو: جشع أوروبا!

أجل جشع أوروبا ونهم مصارفها وشره رأسمالييها

الذى لا ينتهى عند حد. فالأوروبيون - يقول الكاتب - مصابون بمرض أبدى أزلى يعمى أبصارهم ويصرف انتباههم إلى أية حقيقة أخرى غير ما يحقق لهم مزيداً من المال كل يوم. الأوروبى - بجبلته - خلق هلوعاً، لا يشبع، بل لا يريد أن يشبع. وقد تعود على مدى مئات السنين أن تصب كل الخيرات فى خزينته ويرفض كل الرفض أن تشاركه شعوب أخرى فى النعمة أو تتمتع كما يتمتع هو بمستوى أرفع فى الحياة، مهما كانت الأسباب!

أوروبا مستعدة بالتظاهر بالمودة، وأن تربِّت على ظهور الشعوب المتخلفة، وأن تهدهدها بأغنية السلام العالمى وتخدرها بترنيمة الأخوة الإنسانية - ما دامت هذه الشعوب متخلِّفة فعلاً، فقيرة فعلاً، جاهله بكل شىء.

وهى مستعدة للتقرب من العرب مالكى النفط ما دام هؤلاء العرب على حالهم غير منتبهين لاستغلال خيراتهم ولا مدركين أن الغرب يمتص ثروتهم بسرعة ونهم بينما يطعنهم فى الظهر والقلب على حد سواء. فإذا استيقظ العرب لحقيقة هذا الاستغلال البشع، وطالبوا بحقهم المهضوم ورفعوا أسعار النفط ليقارب عشر زيادة الغرب

لأسعار منتجاته الصناعية، كشَّر أهل أوروبا عن أنيابهم وأبرزوا المخلب مع الناب.

ذكَّرنى بهذا كله حديث المستشار الألمانى هلموت شميدت. كان حديثاً ـ مفاجئاً ـ لهجته تهديد ولغته وعيد. ألمانيا تهدد العرب بالويل والثبور وعظائم الأمور وتتوعد بالانتقام من سادة الطاقة وأربابها.

وحديث المستشار الألمانى شيق رغم لهجته. شيق لأنه يفتح أبصارنا على حقيقة ألمانيا الاتحادية الناطقة الرسمية باسم السوق الأوروبية المشتركة التى هى ـ رغم كل ما يقال ـ ليست سوى سوق أمريكية فى حقيقتها. ويزيد حديث الهر المستشار تشويقاً صدوره مباشر بعد اجتماعه بالرئيس الأمريكى جيمى كارتر. كان حديثاً ـ مفاجئاً ـ حقاً!

ما الذى يحرِّك المستشار هلموت شميدت ليدلى بتصريحه المهدِّد؟.

الجشع الأوروبى والتشجيع الأمريكى.

ولنلق نظرة واحدة على بعض الحقائق فى هذا المجال:

● ميزانية بريطانيا ـ الدولة الأفقر فى أوروبا الآن ـ تفوق وحدها جميع دخول وميزانيات الدول العربية من المحيط إلى الخليج.

● تنتج بريطانيا ما يكفيها من الغاز وتصدِّره، وتنتج ما يكفيها من النفط وتصدِّره، وتنتج النرويج وتصدِّر.

● الولايات المتحدة الأمريكية يمكنها أن تغرق أوروبا كلها بالنفط، ويفيض، لكنها تحتفظ بمخزونها لليالى الحالكات السواد.

● يمكن أن نضيف إلى رصد الغرب النفطي دولاً أخرى مثل كندا والمكسيك وفنزويلا ونيجيريا وأندونيسيا.. الخ.

أليس هو الجشع الأوروبى إذن؟

أليس هو التشجيع الأمريكى يأتى فى فترة تحيك فيها الولايات المتحدة المؤامرات ضد العرب وقضيتهم المقدسة وتنصب الفخاخ للأقطار العربية كل يوم؟

أليست هذه سياسة الجزرة والعصا.. أو سيف المعز وذهبه؟ ولماذا العرب بالذات؟ ولماذا الهر شميدت بالذات؟

الغرب ينسى كثيراً - أو يتناسى - ولا يذكر سوى مصلحته. ينسى الغرب أن الدنيا لم تعد القرن التاسع عشر، وأن الوعى القومى مدعوماً بالانطلاقة الثورية العربية صار أمراً لا جدال فيه. ينسى التغيرات الجديدة فى المنطقة، وما هى مقبلة عليه من تغيرات جذرية شاملة. وينسى أن أوروبا - وألمانيا الغربية بالذات - لم تعد تخيفنا مهما ردَّد مستشارها الهر شميدت من تهديد.

بقى أمر مهم ينبغى الالتفات إليه وإدراك أبعاده تماماً. إن المستشار الألمانى ليس سوى - صوت سيده - فى هذا الأمر. وحق أنه مدفوع بجشعه الأوروبى المتأصل، لكن الحق كذلك أن الغرب كله - وأكرر: كله - يتآمر علينا الآن، وليس بعيداً أن ينفذ التهديد، وليس بعيداً محاولة احتلال آبار النفط العربية مباشرة أو عن طريق الكيان الصهيونى أو عميل مثل أنور السادات.

وقد يكون هذا التصريح، والحملة الإعلامية المركزة عن دور العرب في خلق أزمة الطاقة - وهى أزمة مفتعلة بكل تأكيد - تمهيداً لما قد يحدث.

انتباه!!

فهرس

حكاية قديمة جدّاً 5
من افتتاحيات «الفصول الأربعة» 9
ثورة الفكر... وفكرة الثورة 11
عن «فى» و «عن» 16
الأوِّله آه! 19
الكَمَدْيَا 24
ألف. لام. ميم 28
القتل بالكلام الفارغ! 31
التكنو ترانسندانتياليزم 35
متى غده؟ 38
مأساة التاريخ 43
احلموا جيداً أيها الأطفال 47
تأملوا خارطة الوطن 53

واقرأوا شيئاً من التاريخ 55
عن الأدب والثورة 58
الثورة الشاملة 65
علم تغيير المجتمع 69
الذهب الذى لا لون له 73
فن تحطيم الجماجم الكبيرة 76
الأحياء منهم والأموات 82
من «الأسبوع الثقافى» 87
لغة الزِّيْو زيوْ! 89
الثورة الكبرى 93
العدد... والعُدَّة 100
فاصنع ما شئت 108
ما الذى حدث؟ 115
لم لا تفهم ما يقال؟ 123
لماذا «ابن مقلة»؟ 127
المنسيّون 131
والقياس مع الفارق! 140
العلم والعمل 143
تحريك الجلاميد! 146

إلى نيروبى.. والعودة 153

من «الأسبوع السياسى» 167
إفريقيا.. إلى أين؟ 169
... والرأى العام العالمى؟! 177
من.. يستخدم من؟ 183
انتبـــاه! 191

صدر من سلسلة
«كتاب الشعب»

ر/م	عنوان الكتاب	المؤلف/ المترجم
1	أغانى العالم	عياد موسى العوامي
2	يقظة الضمير	عبد الحميد المجراب
3	عرس الثورة	جمعة المهدى الفزانى
4	فلسطين والكتاب المقدس	ترجمة: الدكتور عمر التومى الشيبانى
5	الأمثال الشعبية فى ليبيا	محمد حقيق
6	(14) قصة من مدينتى	كامل حسن المقهور
7	هوامش على تذكرة سفر	محمد أحمد الزوى
8	معارك الغدر	أحمد إبراهيم الفقيه
9	تاريخ المسرح فى الجماهيرية	المهدى أبو قرين
10	أحزان اليوم الواحد	محمد على الشويهدى
11	قراءات فى الأدب	الدكتور صالح أبو اصبع
12	كليلة ودمنة ومقتل عبد الله بن المقفع	محمد أحمد وريث

13	تساؤلات على خارطة لا تسقط عليها الأمطار	عذاب الركابى
14	قراءة فى هذه التحولات	عبد الله بلال
15	قصة الرحالة واكتشاف ليبيا	نجم الدين الكيب
16	الأزاهير	الدكتور على فهمى خشيم
17	الديمقراطية الشعبية	مجموعة من المؤلفين
18	دراسات فى القصة الليبية القصيرة	سليمان سالم كشلاف
19	السلطة والثورة	تحسين عبد الحى
20	رسائل إلى أبناء الثورة	محمد بشير السوكنى
21	فى غمار الفاتح العظيم	عمر الحامدى
22	ثورة الزنج	الدكتور محمد عمارة
23	نحن الشعب	الدكتور ميكى نزيوى ترجمة : شاكر إبراهيم
24	حكايات شارع الغربى	خليفة حسين مصطفى
25	الحق والبندقية	الدكتور صالح أبو أصبع
26	قصة اكتشاف ليبيا فى العصر الحديث	نجم الدين غالب الكيب
27	سلطة الشعب	محمد الفيثورى
28	حتى لا يظهر سادات جديد	سالم والى
29	حلم الثورة فى الشعر الليبى الحديث	فوزى الطاهر البشتى

30	الاتجاهات الحديثة فى مفهوم التربية	د. محمد التومى الشيبانى
31	من وحى رمضان	عبد النبى الربانى
32	التحول الاقتصادى فى الجماهيرية	محمد زيد
33	الفاتح ثورة الإنسان والحرية	جمعة المهدى الفزانى
34	الغد والغضب	خناتة بنونة
35	ذاكرة الكلمات	خليفة حسين مصطفى
36	خلجات إنسان	عيسى أيوب الباروني
37	كلمة فى قضايا الوطن والأمة	سالم والى
38	الاقليمية وغطاءاتها	تحسين عبد الحى
39	الإسلام ثورة مستمرة	عبد العزيز كحلوت
40	إيقاعات على الغربة	على محمد عودة
41	الجماهيرية وانتصار عصر الجماهير	عبد الله بلال
42	ثورة صاحب العباءة	عبد الباسط القذافى
43	الصيام فى القرآن	محمد السيد دسوقى
44	دور التربية فى الوحدة العربية	د. عمر التومى الشيبانى
45	المكتبة وجماهيرية الثقافة	مصطفى بديوى
46	الشعب المسلح	رياض سيف النصر
47	قراءات وتأملات فى الثقافة الشعبية	عمر الموزغى
48	الانفصال الحضارى	جمعه المهدى الفزانى
49	الغربان وجوقة الجياع	البوصيرى عبد الله
50	المسرح الذى نريده	محسن الخياط

51	أسرار القواعد البريطانية فى ليبيا	على شعيب
52	رموز الهزيمة فى الثقافة العربية	فوزى الطاهر البشتى
53	صور من جهاد الليبيين بفلسطين	السنوسى شلوف
54	الارهاب الامبريالى	محمد المصرى
55	فصائل الدم بين الطب والقضاء	الدكتور ممدوح يوسف
56	عرب البرازيل	عبد اللطيف بوكر
57	أواكس طروادة	فارس قويدر
58	تطور التعليم العالى فى ظل الحضارة الإسلامية	د. عمر التومى الشيبانى
59	الكيمياء والدواء	محمد فهمى زعتر
60	عبقرية العرب فى لغتهم الجميلة	الدكتور محمد التونجى
61	الفجر فى عيون الشهداء	فوزى الطاهر البشتى
62	عروس الريف	عمر بلعيد المزوغى
63	أسس التنظيم السياسى فى النظرية العالمية الثالثة	د.أحمدعبد الحميد الخالدى
64	قصيدة البيت الواحد	خليفة محمد التليسى
65	أثر بعد عين	محمد أحمد وريث
66	الخمر بين الطب والقضاء	د. ممدوح يوسف الجاسم
67	القرود	الصادق النيهوم
68	دور التربية فى بناء الفرد والمجتمع	د. عمر التومى الشيبانى
69	ثورة الفلاحين	عبد الباسط عبد الصمد

70	وريقات مطوية	محمد الأسطى
71	القصة فى أدب عبد الله القويرى	أمين مازن
72	دراسات فى الرواية الليبية	سمر روحى الفيصل
73	زمن القصة	خليفة حسين مصطفى
74	الثمن	عبد السلام أبو رقيبة
75	الشعر شهادة دراسات نقدية	أمين مازن
76	الحب / الموت رجل وامرأة	سليمان كشلاف
77	الهنود البرازيليون	عبد اللطيف بوكر
78	مسرحيات بين النقد والتحليل	أحمد بشير عزيز
79	مبادىء التنمية والتخطيط الاجتماعى	د. على الحوات
80	كتابات على جدار الفن فى زمن الثورة	البوصيرى عبد الله
81	تعليم البنت فى الجماهيرية	أحمد محمد القماطى

على مدى ثلاث سنوات ظلّ كاتب هذه المجموعة من المقالات يحرّر افتتاحية مجلة الكتّاب والأدباء «الفصول الأربعة» ويسهم في صحيفة «الأسبوع السياسي» ويكتب تحت عنوان (مرّ السحاب) في «الأسبوع الثقافي» - وهو العنوان الذي تصدر به هذه المجموعة من بعض ما نشر بين عامَيّ 1976 - 1979.

... مرَّ السحابة لا ريثٌ ولا عجلُ.

كان هذا منطلق الكاتب في مقالاته المركّزة عن الفكر - عامَّه وخاصَّه - وعن الثقافة والاجتماع والسياسة، يبدي آراءه في الأحداث التي يموج بها مجتمعه وتتفاعل في وطنه، ويتعامل معها بأسلوب المعالجة المختصرة، ويعرض أفكاره باللمحة الخاطفة.. ليقرأها القارىء في الصحيفة السيّارة أولاً على عجل، راجياً أن يتأملها بعد ذلك على مهل ؟.

الثمن

300 درهم داخل الجماهيرية

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان

اكتوبر 1984
د. علي فهمي خشيم
مرّ السحاب
المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان